د. نبيل فاروق

# الستار الأسود

سبارك للنشر والتوزيع



# الستار الأسود

عالمنا الذى نعرفه محدود ...
ليس بحدوده، ولكن بحدود قدراتنا نحن ...
محدود، بما نعرفه عنه ...
وغير محدود، بما نكشفه من أسراره وخباياه فى كل يوم ...
بل فى كل لحظة ...
عالمنا نراه بأعيننا، ونتعامل معه بحواسنا ومعارفنا ...
وعلى الرغم من كل ما نعرفه، مازالت معارفنا عنه محدودة ...
فما نراه ونسمعه ونلمسه، ليس كل عالمنا ...
هناك ستار، يفصل بين ما نعرفه الآن، وما سوف حتما نعرفه غداص...
ودعونا نبذل محاولة محدودة، للعبور خلف ذلك الستار، الذى يحجب عنا الكثير والكثير من أسرار وخبايا عالمنا .. الستار الأسود.

د. نبيل فاروق





# الستار الأسود

مجموعة قصصية

إن جميع ما تقدمه (سبارك) هو مصنفات عربية مائة في المائة لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس أو النقل عن أي قصص أوروبية أو أمريكية.


إشراف
م. سند راشد
د. تامر إبراهيم

تصميم الغلاف
كريم آدم

الإخراج الفني
م. أحمد محمد أحمد

مراجعة لغوية
أبو عبد الرحمن الخولي

بقلم
د. نبيل فاروق

سبارك للنشر والتوزيع





رقم الإيداع/ 2012/20802






www.spark-books.com


# د. نبيل فاروق

رواية

# الستار الأسود



عالمنا الذى نعرفه محدود...

ليس بحدوده، ولكن بحدود قدراتنا نحن...

محدود، بما نعرفه عنه...

وغير محدود، بما نكشفه من أسراره وخباياه فى كل يوم...

بل فى كل لحظة...

عالمنا نراه بأعيننا، ونتعامل معه بحواسنا ومعارفنا...

وعلى الرغم من كل ما نعرفه، مازالت معارفنا عنه محدودة...

فما نراه ونسمعه ونلمسه، ليس كل عالمنا...

هناك ستار، يفصل بين ما نعرفه الآن، وما سوف حتمًا نعرفه غدًا...

ودعونا نبذل محاولة محدودة للعبور خلف ذلك الستار، الذى يحجب عنا الكثير والكثير من أسرار وخبايا عالمنا..

الستار الأسود.

د. نبيل فاروق

# عيد ميلاد سعيد...

ما أجمل الليل...

هادئ وساكن، وخال من الزحام والضوضاء، وبخاصة فى تلك البقعة شبه الخالية، فى طريق الإسماعيلية، على مسافة كيلو مترات قليلة، من مدينة العاشر من رمضان...

هناك كنت أنطلق، على دراجتى البخارية القوية، التى يشق ضجيج محركها الصغير، مع ضوضاء أنبوب العادم، ذلك السكون البديع لليل...

وعند تلك المنطقة التجارية، توقفت، وجلت بنظرى فيما حولى فى إمعان...

كل شىء كان هادئًا، ساكنًا، على خلاف ما يكون عليه فى الصباح...

إلا ذلك المتجر الصغير، على بعد أمتار من آخر المحال...

كان من المدهش أن يكون مفتوحًا، تنبعث منه الأضواء، فى هذه الساعة، حيث اقترينا من الثانية صباحًا...

أوقفت دراجتى البخارية، وتحسست تلك المدية الحادة فى جيب سروالى الخلفى؛ لأطمئن إلى وجودها، ثم اتجهت إلى ذلك المتجر...

فالليل هو ملعبى..

ومصدر دخلى الرئيسى...

فى الليل، يمكنك أن تربح الكثير...

تستوقف شابًا، وتجبره على أن يعطيك هاتفه المحمول...

أو تقتحم صيدلية ليلية، وتسرق ما بها من مواد مخدرة...

أو تفاجئ حبيبين فى سيارة، فتأخذها منهما عنوة، وتتركهما فى العراء...



الليل كله أرباح...

بالنسبة لمثلى على الأقل...

وصاحب ذلك المتجر الصغير سيكون مصدر دخلى الليلة...

وهذا خطؤه...

ما كان ينبغى له أن يظل فى متجره الصغير، فى ساعة متأخرة كهذه...

هذا خطؤه بالتأكيد...

وعندما وصلت إلى ذلك المتجر تضاعفت دهشتى عندما فوجئت بأنه متجر لبيع ألعاب الأطفال!!

أى متجر ألعاب هذا، الذى يظل مفتوحًا، فى منطقة أغلقت كل أبوابها، وفى مثل هذه الساعة؟!

بل أى أحمق يبقى هنا بعد أن انصرف الجميع؟!

أى أحمق؟!

دفعت باب المتجر الزجاجى، وأنا أتحسس مديتى مرة أخرى، ووقفت فى المتجر، أتلفت حولى فى توتر...

لم يكن هناك أحد...

فقط ألعاب من البلاستيك والفراء، تملأ كل الأرفف...

ولا أحد...

تنحنحت على نحو عصبى، وأنا أقول:

- هل من أحد هنا؟!

إثر سؤالى، فتح أحدهم بابًا جانبيًا، لم أكن لأنتبه إلى وجوده أبدًا؛

لتشابهه المتقن مع الجدار من حوله، فتراجعت بحركة عصبية حادة، وتطلعت فى دهشة إلى شيخ طاعن فى السن، بدا شاحبًا على نحو عجيب، على الرغم من ابتسامته الهادئة الطيبة، وهو يقول:

- أنا هنا يا بنى.

مرأى ذلك الشيخ، الذى ينقل قدميه فى صعوبة، جعل فكرة الرحيل تراودنى لحظة، إلا أننى لم ألبث أن طرحتها جانبًا، وأنا أقول فى خشونة:

- أريد هدية عيد ميلاد لابن شقيقتى.

رمقنى الشيخ بنظرة طويلة، خلت معها أنه سيستنكر قدومى فى هذه الساعة لشراء هدية عيد ميلاد، إلا أنه لم يلبث أن قال فى هدوء:

- لقد جئت فى الوقت المناسب.

أدهشتنى بشدة عبارته، التى لا تتناسب فعليًا مع الوقت، ولكنه أضاف، وهو يشير بابتسامة باهتة، إلى كومة ألعاب، غير متراصة بعناية:

- لقد كنت أجرى جردًا لمجموعة ألعاب سنقدمها بتخفيض كبير فى حفل الافتتاح غدًا.

أدركت عندئذ لماذا بقى الرجل فى متجره، حتى هذه الساعة المتأخرة، فغمغمت فى شىء من الخشونة، التى لم أتعمدها:

- هذا من حسن حظى.

عاد الشيخ يبتسم، ابتسامة أشد شحوبًا من وجهه، وهو يغمغم:

- إنه قدرك.

كان حديثه عن حفل الافتتاح فى الغد، قد أصابنى ببعض الإحباط؛ نظرًا لأن هذا سيعنى خلو خزينته من النقود....



ثم إنه ما من لص يحترم نفسه، يمكن أن يسرق كومة من الألعاب والدمى الفرائية السخيفة...

كنت أفكر فى هذا، عندما سألنى الشيخ الشاحب فى اهتمام:

- أيهما تفضل؟

قالها، وهو يشير إلى الألعاب، التى لم أبال بها إطلاقًا، وأنا أقول:

- الواقع أننى كنت أفكِّر فى هدية أفضل.

رمقنى الشيخ بنظرة طويلة أخرى، قبل أن يقول:

- قلت لك: إنه قدرك.

ثم أشار إلى الباب، الذى خرج منه، وهو يضيف:

- عندى فى الأسفل مجموعة جديدة، لم أنته من تصنيفها بعد، وبها لعبة إلكترونية رخيصة الثمن، ستروق لابن شقيقتك بالتأكيد.

أدرت ظهرى له، وأنا أقول فى ضجر:

- ربما فى مناسبة أخرى.

كنت أهم بمغادرة المكان، عندما سمعته يقول بنفس الهدوء الشاحب:

- فليكن... سأعود إلى جرد الخزانة.

توقفت مع سماع كلمة (الخزانة)، والتفت اليه قائلًا:

- ولكن من يدرى؟ ربما أعجبتنى تلك اللعبة الإلكترونية... تقول إنها رخيصة الثمن... أليس كذلك؟!

اتجه نحو ذلك الباب، وهو يقول فى شحوب:

- انتظر... سأحضرها لك.

كان من الواضح أنه سيهبط إلى حيث خزانة النقود، فقلت فى سرعة، أخشى أنها قد شفت عن لهفتى:

- لا ترهق نفسك... سأهبط معك؛ لأراها بنفسى.

التفت إلى الشيخ مبتسمًا، وغمغم:

- ربما كان هذا أفضل.

كنت أشعر أن أذنىَّ تبذلان جهدًا حقيقيًا لسماعه؛ إذ كان يفتح شفتيه بالكاد، مع صوته الضعيف، فأسرعت إليه، قائلًا:

- نعم... هذا أفضل بالتأكيد.

تقدمنى الرجل نحو الباب، الذى يقود إلى سلم خشبى ضيق، هبطت فيه معه إلى قبو خافت الإضاءة، تفوح منه رائحة عطنة، توحى بأن يد النظافة لم تمتد إليه منذ زمن...

وعلى الضوء الخافت، شاهدت الخزانة...

خزانة معدنية كبيرة، يسيل لها لعاب أى لص محترف؛ ربما لأنها لا تستخدم إلا لحفظ كميات النقد الكبيرة، و...

وفجأة، انتبهت إلى ذلك الصبى...

كان صبيًا شاحبًا نحيلًا، يجلس صامتًا على مقعد قديم، فى ركن القبو، ويبدو بائسًا إلى حد كبير، وإن بدا الاهتمام فى عينيه الواسعتين، وهو يتطلع إلىَّ بلا خوف، والشيخ يشير إليه، قائلًا:

- إنه حفيدى... تصادف أن عيد مولده اليوم، فأتيت به من أجل هديته..

غمغمت، دون أن أرفع عينىَّ عن الصبى:

- أهو مريض؟! إنه شاحب بشدة.



كان وجود الصبى يضايقنى بالفعل، إذ إن الاستيلاء على النقود فى الخزانة، سيضطرنى للتخلص منه مع جده....

وهذه أهم نقطة فى مهنتى...

لا تترك خلفك شهودًا...

أبدًا...

كاد جزءًا من ضميرى يستيقظ، مع رؤية ذلك الصبى الشاحب النحيل، ولكننى أسرعت أخمده، بنظرة أخرى على الخزانة الكبيرة، والشيخ يقول:

- إنه فقط لم يتناول طعامه منذ فترة؛ فهو هنا منذ زمن طويل.

غمغمت بكلمات لا أذكرها، والشيخ يستطرد، مشيرًا إلى كومة أخرى من الألعاب، على مقربة من الصبى:

- اللعبة هنا، ولكنها ستحتاج إلى بعض البحث.

تحسَّست مديتى فى تحفُّز، وأنا أقول فى خشونة:

- فيما بعد.

التفت إلىَّ الشيخ بنظرة خاوية، فانتزعت مديتى، وشهرتها فى وجهه، وأنا أقول:

- ما يشغلنى الآن، هو محتويات تلك الخزانة.

كنت أتوقَّع صراخًا أو ذعرًا، ولكن الشيخ بدا هادئًا إلى حد عجيب، فى حين ظل الصبى ساكنًا فى مقعده، فكرَّرت فى حدة:

- افتح الخزانة.

أطاعنى الشيخ فى استسلام عجيب لم أتوقعه، وهو يقول:

- لا بأس، ولكنك لن تجد بها ما تتوقَّعه.

زمجرت، قائلًا:

- سأكتفى بما أجده.

استدار الشيخ فى هدوء مستفز، وأنا ألوِّح بمديتى، وفتح الخزانة، وهو يقول:

- ها هى ذى.

حدَّقت فى محتويات الخزانة بمنتهى الدهشة والتوتر، وأنا أهتف بلا وعى:

- ما هذا بالضبط؟!

وكان هذا آخر ما نطقت به...

فمع آخر العبارة، تلقيت ضربة قوية على مؤخرة رأسى، و...

فقدت الوعى...

لست أدرى كم بقيت فاقد الوعى، فى ذلك القبو خافت الإضاءة، ولكننى عندما استيقظت، كنت مكمم الفم فى إحكام، ويداى وقدماى مشدودة إلى قضيب معدنى قوى، بأغلال فولاذية، جعلتنى معلقًا أفقيًا فى الهواء...

وكان ذلك الشيخ الشاحب يقف مع حفيده الأكثر شحوبًا، على قيد خطوات منى، وهو يبتسم تلك الابتسامة الهادئة، قائلا:

لم أفهم ما يقوله، وحاولت قول أى شىء، ولكن تلك الكمامة القوية أخرستنى تمامًا...وبعينين مذعورتين، شاهدت الشيخ يخرج مجموعة من السكاكين الطويلة، والسواطيرالضخمة من الخزانة المعدنية



الكبيرة، ويربِّت على رأس حفيده فى حنان، قائلًا:

– سيكون الطعام جاهزًا بعد قليل.

وفى هدوء، انحنى يشعل النار فى موقد كبير أسفلى، وشعرت باللهب يحرق جسدى، وأنا عاجز عن الصراخ، فى حين بدأ الشيخ يدير ذلك العمود المعدنى القوى، وهو يربِّت مرة أخرى على رأس حفيده، وقد ابتسم كلاهما، وظهرت أنيابهما الحادة الطويلة، الشبيهة بأنياب الذئاب، والشيخ يقول بكل الحنان لحفيده:

- عيد ميلاد سعيد.

وكان هذا آخر ما سمعته...

على الإطلاق.

• • •

# أعلى... أم أسفل

"لست أنصحك بالسكنى فى طوابق مرتفعة"...

قالها (صبحى)، سمسار العقارات للمهندسة (ناهد)، فى توتر واضح، وهو يشير إلى المبنى، الذى يحوى ثلاث شقق خالية، فى واحد من أرقى أحياء المدينة، فالتفتت إليه فى دهشة، قائلة:

- ولكنك أخبرتنى أن البناية لها مصعد كبير.. أليس كذلك؟!

تردَّد لحظة، قبل أن يقول، فى لهجة عجيبة:

- المصاعد تتعطَّل أحيانًا.

تطلَّعت إليه بنفس الدهشة لحظات، ثم لم تلبث أن ابتسمت، وهى تقول:

- البناية تبدو لى حديثة العهد، على الرغم من عراقة المنطقة، فلماذا يتعطل مصعدها كثيرًا؟!

تردَّد لحظة أخرى على نحو غير مفهوم، مما جعلها تتابع، فى شىء من السخرية:

- أم أنك تخشى المصاعد على نحو عام؟!

بدا (صبحى) مرتبكًا بعض الشىء، ثم لم يلبث أن قال فى توتر:

- ربما هذا المصعد بالتحديد.

مالت نحوه، تسأله فى اهتمام:

- ولأى سبب؟!

شاهدت فى عينيه لمحة خوف عجيبة، أثارت حيرتها، وجعلتها تعتدل، قائلة فى توتر، انتقل منه إليها:

- هل ستحصل من مالك الشقة السفلية على سمسرة أكبر؟!



تواصلت لمحة الخوف فى عينيه، ممتزجة بتردده وقلقه، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه، وهو يقول فى شىء من العصبية:

- ليست هذه هى الفكرة.

بدت الصرامة فى ملامحها وصوتها، وهى تقول:

- فى هذه الحالة، سأختار الشقة فى الطابق الخامس؛ فهى أكثر أناقة، وأقل إيجارًا... ثم إننى لن أستأجرها إلا لشهر واحد؛ حتى أنهى عملى فى مدينتكم.

تردَّد (صبحى) لحظة أخرى، ثم لم يلبث أن زفر فى توتر، قائلاً:

- هذا شأنك.

ناولها مفتاح الشقة بأصابع مرتجفة، بدت لها ملحوظة للغاية، إلا أنها، بطبيعتها الصارمة، تجاهلت هذا، ووقعت العقد، واستلمت مفتاح الشقة المفروشة فى الطابق الخامس، و(صبحى) يغمغم مكررًا، فى صوت حمل ارتجافة أصابعه:

- تذكرى أن هذا شأنك.

كانت تشعر بالإرهاق، بعد يوم شاق من البحث عن شقة جيدة الأثاث، فى مكان راق، يمكنها أن تقيم فيها خلال ذلك الشهر، الذى يستلزمه إتمام عملها فى تلك المدينة الساحلية الجميلة؛ لذا فهى لم تبال بموقفه، وقررت الصعود إلى الشقة على الفور؛ لتنال قسطا من الراحة، قبل أن تخرج للتجول فى المدينة، التى لم يغب سحرها عنها، منذ كانت تقضى الصيف فيها مع أسرتها، فى طفولتها وشبابها...

وبكل هدوء، استقلت المصعد الكبير، وصعدت إلى حيث شقتها، دون أن يحدث ما يسىء... كانت الشقة صغيرة نسبيًا، ولكنها جيدة الأثاث

على نحو ملحوظ، وبها شرفة جانبية، تطل على البحر، توقفت فيها طويلًا، تستنشق عبير هواء البحر، المشبع باليود، فى استمتاع شديد، قبل أن تغتسل، وتغرق فى نوم عميق...

عندما استيقظت، كانت الشمس قد غربت بالفعل، وبدت الشقة غارقة فى الظلام، إلا من أضواء خافتة، تنقلها إليها اللافتة المضيئة لذلك الفندق القديم، المجاور للبناية، فجلست فى الشرفة قليلًا، تتابع حركة السيارات على الكورنيش، ثم ارتدت ثيابها؛ لتخرج للاستمتاع بالمدينة فى الليل.

كان الطابق الذى تقيم فيه يحوى شقتين، والأخرى تبدو مظلمة، وكأنما لا يسكنها أحد، ولقد أشعرها هذا بشيء من الارتياح؛ لأن أحدًا لن يزعجها حتمًا، طوال فترة إقامتها، التى قد لا تستغرق الشهر بأكمله...

وفى هدوء، وصل المصعد إلى طابقها، ولكنه لم يكن مضيئًا، شأن المصاعد الحديثة، بل كان يحوى مصباحًا واحدًا خافتًا، يمكنك أن تميِّز ما حولك معه فى صعوبة، إلى أنها دلفت إليه، وضغطت زر الطابق السفلى، ووقفت تنتظر...

ثم فجأة، انتبهت إلى ذلك الواقف فى الركن...

لم تكن قد تبينته عند دخولها المصعد، مع الضوء شديد الخفوت، فانتفض جسدها لحظة، خجلت بعدها من شهقة الدهشة المذعورة، التى انطلقت منها عفويًا، فحاولت أن تبتسم، وهى تقول:

- معذرة... لم أنتبه إليك فى البداية.

على الضوء شديد الخفوت، والذى يختفى عند عبور المصعد، لتلك المسافة بين الطوابق، رأت فيه رجلًا متوسط الطول، له شعر أشيب قصير، يضم يديه أمام جسده، ويخفض وجهه كله، وكأنه يتأمل



أرضية المصعد...

ولقد اكتفى ذلك الرجل برفع يده اليمنى قليلًا، وكأنه يعلن قبول اعتذارها، ثم عاد إلى وقفته، فى صمت عجيب...

ولأنها وجدت أن هذا ليس من حسن الخلق، فقد اعتدلت فى وقفتها، وأبعدت نظرها عنه، فى انتظار هبوط المصعد إلى الطابق الأرضى...

وظل المصعد يهبط...

ويهبط...

ويهبط...

وشعرت (ناهد) بمزيج من الدهشة والخوف...

إنها تقيم فى الطابق الخامس، والمفترض أن يعبر المصعد خمسة طوابق، قبل أن يصل إلى الطابق الأرضى، ولكنها أحصت سبعة طوابق حتى الآن، و...

وفجأة، توقف المصعد...

وكلمة (فجأة) هنا لم تكن مبالغة، فقد توقف بالفعل على نحو مباغت، اختل معه توازنها أو كاد، حتى إنها ألصقت يديها ببابه، حتى لا تقع أرضًا، وغمغمت فى سخط:

- هذا المصعد اللعين، يحتاج بالفعل إلى إصلاح.

بدت لها العبارة فجأة، فى وجود ذلك الراكب الآخر، فالتفتت إليه نصف التفاتة، قائلة:

- معذرة.

مرة أخرى، اكتفى الرجل برفع يده اليمنى قليلًا، دون أن يجيب،

فى نفس الوقت الذى انفتح فيه باب المصعد، فغادرته مغمغمة:

- تفضَّل.

ولكن الرجل اكتفى مرة أخرى برفع يده اليمنى، دون أن يرفع وجهه إليها، ولم يغادر مكانه، فهزَّت كتفيها، متصوِّرة أنه لم يكن يرغب فى الهبوط، ولكنها استدعت المصعد قبل أن يغادره، مما اضطره للصعود إلى طابقها، ثم لم تسأله هى عن الطابق الذى ينشده، قبل أن تضغط زر الطابق الأرضى...

الفكرة جعلتها تغادر المبنى، وتلقى نظرة عليه من الخارج؛ لتتأكَّد أنه من خمسة طوابق، قبل أن تغمغم:

- ربما أخطأت العد...

ألقت كل هذا خلف ظهرها، وهى تستقل سيارتها إلى منتصف المدينة، حيث التقت بصديقة قديمة، تقيم فى تلك المدينة الساحلية، وقضيا معًا سهرة لطيفة، قبل أن تغادرها قرب منتصف الليل، عائدة إلى حيث تقيم....

وعند مدخل البناية، فوجئت بالسمسار (صبحى) يقف، متطلعًا إلى المصعد فى قلق أثار ضحكتها، وجعلها تسأله، وهى تدلف إلى حيث المصعد:

- هل سجنت داخل المصعد فى طفولتك أم ماذا؟!

انتفض (صبحى) لمرآها، والتفت إليها بعينين مذعورتين، كما لو أنه قد رأى شبحًا، وما أن تبيَّن هويتها، حتى سألها، فى خليط من اللهفة والقلق:

- أأنت بخير؟!



أجابته فى دهشة:

- بالتأكيد... ولماذا لا أكون؟!

نقل بصره بينها وبين المصعد، قبل أن يسألها فى خوف:

- هل تنوين استقلال المصعد فى هذه الساعة؟!

أحنقها قوله، فضغطت زر المصعد، وهى تقول فى صرامة:

- إنك لا تتوقَّع منى أن أصعد على قدمىَّ إلى الطابق الخامس.

غمغم فى عصبية:

- ربما كان هذا أفضل، فى مثل هذا التوقيت.

التفتت إليه فى غضب، قائلة فى حدة:

- اسمع يا رجل... احتفظ بعقدك هذه لنفسك، واتركنى أنا لشأنى...إننى أبغض التدخل فى شئونى على هذا النحو.

تردَّد (صبحى) لحظات، ثم قال فى استسلام:

- فليكن... هذا شأنك.

تابعته ببصرها، حتى ابتعد عن المكان، واختفى فى شارع مجاور، وقالت فى حنق:

- يا له من لجوج!

كان المصعد قد وصل بالفعل، فدلفت إليه، وامتدت سبابتها إلى زر الطابق الخامس، عندما انتفض جسدها فى قوة، وأطلقت شهقة قوية، قبل أن تقول فى عصبية، وهى تتطلَّع إلى نفس الرجل، الذى بدا وكأنه لم يغادر مكانه أو وقفته، منذ غادرت البناية:

- معذرة، ولكن موقفك هذا يثير التوتر بالفعل.

ولأوّل مرة، تحدث ذلك الرجل...

كان صوته خافتًا، ممتلئًا بالحزن والأسى، وهو يقول:

- كان ينبغى أن يضعوا لافتة، تشير إلى أن المصعد معطل.

لم تفهم (ناهد) ما يعنيه هذا، فغمغمت، وهى تحاول التكيف مع ذلك الضوء الخافت؛ لترى وجه الرجل:

- ماذا تعنى؟! إنه يعمل منذ الصباح، ولقد هبط هذه المرة فى هدوء!

لم يبد أن الرجل قد سمعها، وهو يواصل:

- كان ينبغى على الأقل، أن يصلحوا الباب، حتى لا ينفتح فى غياب المصعد.

مالت نحوه، محاولة رؤية ملامحه، وهى تغمغم:

- من تعنى بالضبط؟!

واصل حديثه، قائلًا فى غضب:

- وينبغى أن يدفعوا الثمن...

ثم رفع وجهه إليها دفعة واحدة، قائلًا فى غضب شرس:

- كلهم.

وتراجعت (ناهد) فى رعب، وهى تطلق صرخة قوية...

فوجه الرجل كان مشوهًا فى شدة، وتغمره الدماء على نحو مخيف...

وفى نفس اللحظة، التى رفع فيها وجهه إليها، بدأ المصعد يهبط فى سرعة، على الرغم من وجوده فى الطابق الأرضى...



وصرخت (ناهد) ثانية، وبقوة أكبر، عندما اختفى الرجل دفعة واحدة...

وصرخت ...

وصرخت...

وضغطت كل أزرار المصعد، إلا أنه واصل هبوطه بسرعة مخيفة، ضاعت معها صرخاتها... تمامًا...

وبعد أسبوع واحد، وبينما الشمس تغمر البناية الحديثة نسبيًا، فى ذلك الحى العريق، سأل السمسار (علوى)، زميله (صبحى)، الذى يجلس على مقعد خشبى صغير، متطلعًا إلى البناية:

- ألم تظهر بعد؟!

غمغم (صبحى):

- لن تظهر.

ثم أشار إلى سيارة (ناهد)، التى علتها بعض الأتربة، والتى لم تغادر مكانها، منذ تلك الليلة، متابعًا:

- إن عاجلًا أو آجلًا سيأتى أحدهم للبحث عنها.

سأله (علوى)، شأن من اعتاد الأمر:

- وهل ستبلغ الشرطة؟!

صمت (صبحى) لحظات، ثم هزّ رأسه نفيًا، وغمغم:

- سيتهموننى بالجنون، لو فعلتها مرة أخرى.

سأل (علوى) فى اهتمام:

- ماذا ستفعل إذن؟!

هزَّ (صبحى) كتفيه، وقال:

- كالمعتاد... سأنتظر حتى نهاية العقد، ثم أعرض الشقة مرة أخرى للإيجار.

بدا (علوى) قلقًا، وهو يقول:

- وهل ستخبر سكانها الجدد بما ينتظرهم؟!

صمت (صبحى) لحظات أخرى، ثم عاد يهز كتفيه، مجيبًا فى صوت خافت:

- هذا شأنهم.

وعاد يتطلع إلى البناية...

فى صمت.

• • •



## نــداء...

بدأت تلك الليلة هادئة، كمعظم ليالى الصيف، فى الريف المصرى، وعلى الرغم من الصخب المحدود، فى ذلك الركن الصغير، الشبيه بالمقهى، عند أطراف القرية، بسبب متابعة البعض لمباراة كرة قدم هامة، بين فريقين أجنبيين، ومن كركرة الشيشة المعتادة، وأصوات أكواب الشاى الساخن، وهى توضع وترتفع عن الموائد الخشبية شبه المتهالكة، ساد باقى القرية هدوء جميل، بعد أن شارفت الساعة منتصف الليل، وأوى معظم أهل القرية إلى فراشهم؛ استعدادًا ليوم العمل التالى...

وفى ضجر واضح، غمغم (فتحى)، موظف مكتب الإصلاح الزراعى الجديد فى القرية، مشيرًا إلى زميله (ممدوح):

- أهذه هى وسيلة الترفيه الوحيدة هنا؟!

ابتسم (ممدوح)، قائلًا:

- إنها كذلك، ولكن سرعان ما تعتاد الأمر، فالقوم هنا أبسط بكثير من سكان المدن، على الرغم من أن الجيل الجديد منهم لم يعد يعمل فى الزراعة كالسابق.

قلب (فتحى) شفتيه، قائلًا:

- هذه كارثة، أن ينفصل سكان الريف عن ريفهم، فمازلت أذكر كيف كانت جدتى تحقق اكتفاءً ذاتيًا فى قريتنا، ولا تحتاج تقريبًا لشراء مستلزماتها الأساسية من المدينة... انظر إلى ما يحدث الآن... إنهم يبتاعون الجبن والبيض والخبز من المدينة، بعد أن كانوا هم من ينتجون هذه الأشياء.

هزَّ (ممدوح) كتفيه، قائلًا فى بساطة:



- الزمن يتطوَّر يا رجل.

غمغم (فتحى) فى سخط:

- إلى الأسوأ.

استدار إليه (ممدوح)، قائلًا:

- كل شىء فى الوجود له سلبياته وإيجابياته... على الأقل ارتفعت نسبة التعليم بينهم.

قال (فتحى) فى سخط مستنكرًا:

- وهل تسمى هذا تعليمًا؟! إنهم مازالوا يعيشون فى خرافات الماضى، ويرددون نفس الروايات السخيفة، التى كانت ترويها لنا جدتى فى طفولتنا... أتصدق أنهم مازالوا يروون قصة (النداهة) فى العقد الثانى من القرن الحادى والعشرين؟!

بدا التردُّد والتوتر واضحين، على ملامح (ممدوح)، وهو يغمغم فى صوت، حمل الانفعالين نفسيهما:

- ليست كلها خرافات.

التفت إليه (ممدوح)، بنظرة تجمع بين الاستنكار والازدراء، وهو يقول:

- لا تقل لى إنك تؤمن بخرافة (النداهة) هذه؟!

تردَّد (ممدوح) لحظات أخرى، ثم قال فى خفوت:

- كثيرًا ما تحمل لمحة من الحقيقة... أنت تعلم أن الحكم القديمة تقول: إنه لا دخان بلا نار.

أجابه فى شىء من الحدة:

- ما تعلمناه فى صفوف الكيمياء، يؤكِّد وجود الكثير من الدخان بلا نار.

رمقه (ممدوح) بنظرة متوترة، ثم أشاح عنه بوجهه، وكأنه لا يريد الاستطراد، ولكن (فتحى) تابع فى إصرار:

- من يصدِّق، فى القرن الحادى والعشرين وجود جنية الحقول هذه، التى تناديك باسمك، أثناء سيرك بين الحقول، فإذا ما التفت إليها، طار عقلك، وصرت مجنونًا.

غمغم (فتحى)، فى لهجة استفزازية:

- وهل تصدِّقها أنت؟!

ظلَّ (ممدوح) صامتًا بعض الوقت، متظاهرًا بمتابعة شاشة التلفاز الصغير، ثم لم يلبث أن غمغم، فى شىء من الحدة:

- لكل شأنه يا رجل.

كان من الواضح أنه يرفض خوض هذا الحديث؛ مما ضاعف فى أعماق (فتحى) ذلك الشعور بالضجر والسخط، فنهض بحركة حادة، قائلاً:

- الأفضل أن أذهب للنوم.. هذا لو استطعت احتمال ذلك المنزل الحقير، الذى يمنحونه لموظفى المصلحة.

غمغم (ممدوح) مرة أخرى، دون أن يلتفت إليه:

- فليكن.

ثم استدار نصف استدارة نحوه، مكملاً:

- ولكن خذ حذرك.

ابتسم (فتحى) ابتسامة ساخرة، وألقى نظرة مستنكرة عليه، ثم



غادر المقهى، عائدًا إلى ذلك المنزل الصغير، فى الطرف الآخر من القرية...

كان السكون يخيِّم على كل شىء تقريبًا، ولكن الطقس بدا منعشًا، مما جعله يسير بين الحقول، مدندنًا بأغنية عاطفية قديمة، عشقها منذ حداثته...

" أستاذ (فتحى)... "

فجأة، ارتفع ذلك النداء، بصوت خافت مبحوح، حمل رنة أنثوية واضحة، فانتفض جسده كله دفعة واحدة، وتجمَّدت حركته، فتوقف بغتة، وشعر بتلك القشعريرة تسرى فى جسده...

لا... مستحيل! هذا لا يمكن أن يحدث...

لا يمكن أن يكون هذا حقيقة...

(النداهة) خرافة...

مجرَّد خرافة...

ردَّد هذا فى أعماقه، فى محاولة لانتزاع ذلك الخوف من نفسه، ودفع قدميه دفعًا ليواصل طريقه،

وإن تسارعت خطواته بعض الشىء...

ومرة أخرى، تردَّد ذلك النداء الأنثوى من خلفه...

نداء يحمل اسمه...

وبصوت أكثر ارتفاعًا...

وفى هذه المرة، طرح عقله كل محاولاته جانبًا، أمام ذلك الرعب، الذى سيطر على كيانه كله...

إذن فهى حقيقة...

(النداهة) ليست خرافة....

ما روته له جدته فى طفولته لم يكن وهمًا...

(النداهة) حقيقة...

وها هى ذى تناديه، كما روت له الجدة بالضبط...

تناديه باسمه، وسط الحقول، بعد منتصف الليل...

تسارعت خطواته، على نحو كبير، وارتجف جسده كله فى شدة...

ومن خلفه، سمع خطوات أخرى...

خطوات مسرعة، تحاول اللحاق به...

واتسعت عيناه، فى رعب بلا حدود...

ومرة ثالثة، تصاعد ذلك النداء الأنثوى من خلفه...

نداء باسمه...وبصوت واضح...

واضح للغاية...

إنها خلفه...

تسرع نحوه...

تريد أن تقتنصه...

واستعاد عقله كل حكايات جدته...

لا ينبغى أبدًا أن يلتفت إليها، وإلا سلبته عقله...

لا ينبغى أن يلتفت أبدًا...

ومع النداء الرابع، الذى بدا مرتفعًا أكثر من ذى قبل، تحوَّلت خطواته المسرعة إلى جرى مذعور...



كان يحاول مغادرة منطقة الحقول، قبل أن تلحق به....

ولكن الخطوات من خلفه تسارعت أكثر وأكثر....

ومع النداء الخامس، الذى يحمل اسمه، بدأ يصرخ دون وعى:

- ابتعدى عنى... ابتعدى عنى...

ولكن الخطوات تسارعت خلفه أكثر و...

وفجأة، أدرك أنه قد ضل طريقه، وأنه محاط بالحقول من كل صوب، وتعثرت قدماه على الطريق غير الممهَّد، فحاول أن يتشبث بشىء...

أى شىء...

وفى محاولة يائسة، أمسك عودًا من أعواد الذرة، ولكن العود انكسر مع ثقله، فاختل توازنه، وسقط أرضًا...

ومع رعبه الشديد، شعر بتلك الأقدام تتوقف، على قيد خطوة واحدة منه...

ثم انتفض جسده بكل رعب الدنيا، عندما شعر بيد رقيقة توضع على كتفه، مع صوت أنثوى متوتر، يكرِّر النداء باسمه...

وبينما يستدير ليدفع تلك اليد عن كتفه، ارتطم بصره بوجهها...

وجه أنثوى، وسط ملاءة سوداء، تحيط به..

وصرخ (فتحى)...

وصرخ..

وصرخ..

" ما الذى أصابه؟!"...

نطقها ضابط النقطة فى دهشة، وهو يتطلَّع إلى (فتحى)، الذى اتسعت عيناه، وراح يضرب الهواء بذراعيه، وكأنما يدفع عنه عدوًا مجهولًا، وقد حملت ملامحه كلها علامات الرعب والجنون، فأجابته (سيِّدة) زوجة شيخ خفر القرية فى ارتباك وانفعال:

- لست أدرى يا باشا... لقد شاهدته يسير وسط الحقول، متجهًا إلى حيث ترعة القرية، وأدركت أنه قد ضل طريقه، فأسرعت خلفه؛ لأحذره من هذا، ولكنه راح يعدو نحو الترعة، وعدوت خلفه أناديه، حتى لا يسقط فيها، وعندما تعثَّر أردت أن أساعده على النهوض، ففوجئت به يصرخ فى شدة، وقد أصابه ما أصابه.

تطلَّع ضابط النقطة فى إشفاق إلى (فتحى)، وهو يغمغم:

- المسكين أصيب بالجنون، وملامحه توحى بأنه قد شاهد ما أثار رعبه، وأفقده صوابه... أى شىء يمكن أن يفعل برجل ناضج هذا؟!

كان (ممدوح) يعلم الجواب...

ولكنه لم ينبس بحرف واحد...

فخشيته من المسئولية أطلقت فى أعماقه نداء الصمت...

ويا له من نداء!

• • •



# ميمى الصغير...

انهمر المطر فى غزارة، فى تلك الليلة من ليالى الشتاء، وأسرع (محمود) يحث الخطى، محاولاً عبور تلك المنطقة من الميدان الكبير؛ للاحتماء بأحد الشرفات البارزة، من المطر المنهمر....

كانت عقارب الساعة مازالت تشير إلى السادسة مساءً، ولكن الغيوم الكثيفة، التى غطت السماء، أوحت بوقت أكثر تقدمًا، وأضفت على الميدان كله طابعًا كئيبًا، على الرغم من السيارات التى تعبره، وتزاحم حركة المرور فيه؛ بسبب الامطار الغزيرة، مع خلوه من المارة تقريبًا؛ لاحتماء معظمهم بمداخل البنايات، أملاً فى انتهاء تلك النوّة البحرية العنيفة...

ولم يكد يصل إلى ذلك المكان، أسفل شرفة كبيرة، حجبت المطر من بقعة صغيرة، أدهشه ألا يحتمى بها سواه، حتى ألصق ظهره بالجدار، ولهث على نحو لا يتناسب مع المسافة التى قطعها، وغمغم:

- متى ينتهى هذا المطر؟!

لم يكد ينطقها، حتى تناهى إلى مسامعه بكاء طفل..

كان بكاءً خافتًا، ينبعث من ممر بين بنايتين، ويجاور موضعه تمامًا...

وفى قلق وفضول، حاول (محمود) أن يميل بجسده؛ ليلقى نظرة على ذلك الممر، إلا أن المطر الغزير جعله يتراجع مرة أخرى، ويلتصق بالجدار..

ولكن بكاء الطفل تواصل...

وتواصل...

كان بكاءً حارًا، انفطر له قلبه، فلم يحتمل البقاء فى مكانه، وإنما



مال بجسده، تاركًا المطر ينهمر فوقه، وهو يطل على الممر الضيق، الذى بدا مظلمًا للغاية، وهو يهتف:

- من هناك؟!

لم ينقطع بكاء الطفل مع ندائه، وإن بدا شديد الوضوح، وهو يضع رأسه عند مدخل الممر، فتردَّد لحظة، ثم غادر مكمنه، إلى حيث ينهمر المطر، ووقف عند أوَّل الممر، يتساءل:

- لماذا تبكى؟!

ومع سؤاله، لمح ذلك الطفل لأوَّل مرة...

كان ينكمش مرتجفًا، خلف صندوق قمامة كبير، وكأنما يحتمى به من المطر، ويواصل بكاءه، وكأنه لم يسمع السؤال...

وبحركة سريعة، تقدَّم (محمود) نحو صندوق القمامة، والمطر يغرق وجهه وجسده، ومال من خلفه؛ ليلقى نظرة أقرب على الطفل...

كان طفلاً فى الخامسة من عمره تقريبًا، ينكمش على نحو مثير للشفقة، ويرتدى ملابس جيدة الصنع، تشير إلى أنه ليس طفلاً من أطفال الشوارع، وإنما طفل أسرة جيدة...

وكان وجهه وأطرافه مائلة للزرقة، مع برودة الطقس وانهمار المطر، مما جعل (محمود) يسأله مشفقًا:

- ما الذى أتى بك هنا؟!

وفى بطء، مال الطفل ببصره نحوه، وبدت عيناه الواسعتان مغرورقتين بالدموع، وهو ينظر إليه، وشفتاه الزرقاوان ترتجفان على نحو عجيب...

وبلا تردد، خلع (محمود) سترته، وناولها للطفل، محتملاً المطر

المنهمر على جسده، وهو يغمغم متعاطفًا:

- أنت ترتجف بردًا..

لم يمد الطفل يده لالتقاط السترة، فوضعها (محمود) على كتفيه، وهو يغمغم مشفقًا:

- يا إلهى !! أنت بارد كالثلج.

واصل الطفل بكاءه، وإن خفت صوته قليلاً، وهو يتطلع إلى (محمود)، الذى حاول أن يبتسم؛ ليبث بعض الطمأنينة فى نفسه، وهو يقول فى خفوت:

- أنت تائه.... أليس كذلك؟!

تطلع الطفل إلى عينيه مباشرة، وهو يقول شيئًا ما فى خفوت، على نحو لم يميّزه (محمود)، فمال نحوه يسأله:

- ماذا تقول؟!

ارتفع صوت الطفل قليلاً، ليميّز (محمود) كلمته الوحيدة:

- (ميمى)...

أرهف (محمود) سمعه لحظة، ثم اعتدل، قائلاً:

- اسمك (ميمى)؟!

كرر الطفل، وبكاؤه يقل تدريجيًا:

- (ميمى)...

اعتدل (محمود)، وعلى الرغم من المطر، الذى مازال ينهمر فى غزارة، شعر بالكثير من الارتياح، وهو يسأله:

- اسمك لطيف يا (ميمى)، ولكن كيف وصلت إلى هنا؟!



لم يزد الطفل عن ترديد اسمه فحسب، ثم عاد إلى صمته، وهو يتطلع إلى عينى (محمود) مباشرة، وكأنه يناشده أن يفهمه...

واعتدل (محمود) يتطلع إليه بدوره..

إنه طفل تائه...

ما من شك فى هذا...

ملامحه وثيابه تدلان على أنه من أسرة معقولة...

و...

وفجأة، سطع البرق فى السماء، وتلاه هزيم الرعد، فانتفض جسد (محمود) فى شدة...

ولكن (ميمى) لم يتأثر...

لقد ظل على نفس موضعه، يتطلع إلى عينيه مباشرة، وكأنما لا يرى سواهما...

وفى دهشة، تطلع إلى (محمود) متسائلاً: كيف لم يفزعه هزيم الرعد، الذى كان أشبه بدوى القنابل...

ثم قفز الجواب إلى ذهنه بغتة...

إنه طفل أصم...

هذا هو التفسير المنطقى...

فلهذا لم يسمعه، عندما ناداه فى البداية...

ولهذا يردد اسمه فقط، مع كل سؤال...

وبمنتهى الإشفاق، غمغم (محمود):

- يا للمسكين!!

طفل أصم...

تائه...

جائع...

وحيد...

وتحت هذا المطر الغزير...

يالها من صورة، تحطم أشد القلوب قسوة وتحجرًا...

وبكل مشاعره وألمه، مدَّ (محمود) يده إلى الصغير، قائلًا:

- هيا... سنجد لك أوَّلًا مكانًا تجفف فيه ثيابك.

نظر الطفل إلى اليد الممدودة إليه، فى خوف حذر، فرسم (محمود) على شفتيه ابتسامة، وهزَّ رأسه فى رفق، وهو يغمغم:

- هيا.

كان يفكِّر فى حمل الطفل إلى أحد مطاعم الوجبات السريعة فى الميدان، حيث يجد الدفء والطعام والأمان...

ولكن الطفل لم يستجب.

لقد عاد ينكمش فى خوف، ويتطلع إلى عينى (محمود) مباشرة...

وحاول (محمود) أن يوسِّع فعلا ابتسامته، وهو يغمغم مشفقا:

- لا تخف... سنجد أهلك قريبًا بإذن الله.

تطلع إليه الصغير لحظات، ثم رفع يده فى بطء، وأشار إلى عمق الممر...

وعلى نحو غريزى، تبع (محمود) إشارته ببصره...

وهناك، وسط ذلك الظلام، الذى غطى الممر الضيق، المحصور



بين بنايتين عالتين، لمح ذلك الجسم الملقى، عند نهاية الممر..

وفى هذه المرة، انتفض جسده أكثر، واتسعت عيناه، وهو يغمغم:

- يا الهى!

وبسرعة، عاد ببصره إلى الصغير، هاتفًا:

- أهو والدك؟!

كرر الصغير فى خفوت حزين:

- (ميمى).

اعتدل (محمود)، واتسعت عيناه أكثر، وهو يقول بارتجافة انفعال هذه المرة:

- (ميمى)؟! أهى أمك؟!

نهض الصغير فى هدوء، ومدَّ يده إليه، وهو يشير مرة أخرى إلى عمق الممر، قائلًا فى صوت اختلط بالنحيب:

- (ميمى).

أمسك (محمود) يد الصغير، التى بدت باردة كالثلج، وقاوم انفعالاته، وهو يغوص معه فى قلب الممر، متجهًا نحو ذلك الجسد فى نهايته...

لم يكن قد رأى جثة فى حياته كلها؛ لذا فقد واصل ارتجافاته، وهو يقترب منها فى حذر، وقد تشبث الصغير بيده فى قوة...

وعلى الرغم من أن عمق الممر لم يزد عن ستة أمتار، إلا أنها بدت له أشبه بكيلو متر كامل، وهو يقترب من ذلك الجسم...

ويقترب...

ويقترب...

ومع الظلام الشديد، وقف على بعد خطوة واحدة من ذلك الجسد، الذى بدا مغطى بقطعة كبيرة من القماش، وتردَّد لحظات، وهو يغمغم:

- أظن أنه من الافضل أن نتصل بالشرطة.

عاود الصغير نحيبه، وهو يشير إلى ذلك الجسم، فتردَّد (محمود) لحظة أخرى، ثم انحنى يجذب ذلك الغطاء، و....

واتسعت عيناه فى دهشة بالغة....

فأسفل الغطاء، لم تكن هناك جثة...

كانت هناك فقط حفرة عميقة واسعة...

وفى دهشة بالغة، التفت إلى الصغير، الذى أفلت يده، مغمغمًا:

- ولكن...

لم ينطق حرفًا آخر بعد الكلمة...

ففى تلك اللحظة، سطع البرق مرة أخرى...

وانتفض (محمود)، أعنف انتفاضة، منذ بدء ذلك الموقف كله...

فعلى ضوء البرق، لمح ملامح (ميمى) الصغير واضحة...

لم تكن بشرته مائلة إلى الزرقة...

بل كانت زرقاء بالفعل...

وكان وجهه مغطى بالتراب، وكأنه خرج من قبره منذ لحظات...

وما أثار رعبه أكثر، هو تلك النظرة المخيفة، المطلّة من عينى الصغير، مع تلك الابتسامة المرعبة على شفتيه...

أما ثيابه، فلم تعد أنيقة...

ولم تكن ثيابًا شفوية، تناسب الطقس...



كانت ثيابًا صيفية خفيفة جدًا...

وبكل رعبه، تراجع (محمود)....

ودون أن يدرى، تجاوز حافة تلك الحفرة العميقة...

وهوى...

ومع هزيم الرعد، انطلقت صرخته المدوّية...

ومع هزيم الرعد أيضًا، لم يسمعها أحد...

وبينما يلفظ أنفاسه الاخيرة، فى عمق الحفرة، شعر بالجثث الأخرى من حوله...

وتحسَّست يده جثة طفل صغير...

فى ثياب صيفية...

وفى نفس اللحظة، التى فاضت فيها روحه، كان (أدمون) يحتمى من المطر الغزير، بتلك الشرفة الواسعة، عند مدخل الممر، عندما سمع بكاء طفل صغير....

طفل (كان) اسمه (ميمى).

• • •

## مـرحبـًا...

انطلق عواء ذئب بعيد، وسط سكون تلك المنطقة الريفية، في محافظة (كفر الشيخ)، فارتجفت (نادية) في خوف، وحاولت أن تلتصق بزوجها (وفيق)، الذي أوقف سيارته، إلى جوار ترعة صغيرة، وهي تقول في خفوت مذعور:

- (وفيق).... من الواضح أننا قد ضللنا الطريق...

لم يكن توتره بأقل منها، إلا أنه حاول أن يخفيه في أعماقه، وهو يغمغم:

- يبدو هذا.

سألته في خوف:

- ماذا سنفعل إذن؟! المكان مقفر تمامًا، وهذا الطريق المختصر، الذي قلت إنك تذكره جيدًا، لم نعثر فيه على أي شيء، طوال نصف ساعة أو يزيد.

بدا عصبيًا، وهو يقول:

- لست أدري كيف حدث هذا؟! لقد عبرت هذا الطريق أكثر من مرة، وكان يقودني دومًا إلى المدينة، في أقل من عشرين دقيقة.

غمغمت مرتجفة:

- ربما أخطأت الطريق.

هتف، في عصبية أكثر:

- مستحيل! المرء لا يخطئ طريقًا، يعبره مرتين أسبوعيًا على الأقل.

التصقت به أكثر، وهي تسأله، في لهجة أقرب إلى البكاء:

- ولكننا ضللنا الطريق بالفعل، فماذا سنفعل؟!



كان توتره في الواقع يفوق توترها ألف مرة، خاصة وهو يستعيد ذكريات قديمة، حاول طوال عشر سنوات محوها من ذاكرته، والتظاهر بأنها لم تحدث قط...

تلك الذكريات، التي ترتبط بالساقية القديمة، التي يلمحها من بعيد، على ضوء القمر.... مستحيل أن يكون قد اختار هذا الطريق الفرعي البعيد بإرادته!!

مستحيل!!

إنه يبعد ثلاثة كيلو مترات عن مدخل الطريق المختصر، الذي اعتاد عبوره إلى المدينة، منذ أكثر من خمس سنوات...

ثم إن مدخله مهمل ضيق، يصعب أن تعبره سيارة...

فكيف وصل إليه؟!

كيف؟!

أيكون قد عبر، دون قصد طريقًا فرعيًا، نقله من طريقه المعتاد إلى ذلك الطريق القديم المهجور؟!

ولكن كيف؟!

طوال خمس سنوات، لم يلمح أبدًا طريقًا فرعيًا، خلال عبوره ذلك الطريق المختصر القصير...

ثم إنه، وحتى في عقله الباطن، سيتلاشى حتمًا مجرد رؤية هذا الطريق المهجور...

هذا لأنه، ومهما حاول، لا يستطيع نسيان ما حدث فيه، منذ عشر سنوات...

" ليس أمامنا سوى أن نعود أدراجنا...."

غمغمت (نادية) بالعبارة، فى صوت خافت مرتجف، فالتفت إليها بعصبية، قائلاً:

- الطريق أضيق من أن تدور فيه السيارة... إنه يستوعبها بالكاد...

غمغمت، ودموعها تسيل بالفعل:

- فلنواصل طريقنا إذن؛ لعل الطريق يقودنا إلى مكان مأهول.

لم يكن هناك بالفعل حل آخر، على الرغم من انتشار البرارى فى المنطقة، مادام البقاء غير وارد، مع عواء الذئاب الآتى من بعيد، ومع وجود تلك الساقية القديمة تحت بصره...

فمازالت تلك الذكريات القديمة تطارده...

وتخيفه...

مازال يذكر فى وضوح، مروره فى هذا الطريق المهجور، منذ عشر سنوات، عندما كان شابًا جامحًا، يميل إلى المغامرة والتجريب، وكيف أنه، وعلى الرغم من وعورة الطريق، انطلق عبره فى سرعة، وهو يستمع إلى أغنية حديثة، بمقياس ذلك الزمن، ويطلقها فى صوت مرتفع، و....

وفجأة، ظهر أمامه ذلك الشاب...

لم يدر من أين جاء، ولا ماذا كان يفعل فى طريق مهجور كهذا، ولكنه برز فجأة أمام سيارته...

ولم يكن هناك مفر من الاصطدام به، و...

" ألن نواصل طريقنا؟!"...

ألقت (نادية) السؤال فى خفوت، امتزج بنحيبها المذعور، فالتفت إليها لحظة، خلت فيها مشاعره من أى شىء، قبل أن يغمغم:



- بالتأكيد.

كان المضى يعنى المرور إلى جوار تلك الساقية القديمة، التى لم يتصوَّر رؤيتها مرة أخرى، والتى تلقى ظلالاً مخيفة أمامها، مع ضوء القمر، الذى توسَّط السماء بدرًا مكتملاً، إلى أنه التقط نفسًا عميقًا، فى محاولة تهدئة أعصابه الثائرة، وبدأ يتحرَّك بالسيارة فى بطء، وعيناه معلقتان بتلك الساقية القديمة، وذكرياته تتدفق فى رأسه، على الرغم منه...

إنه مازال يذكر مشهد ذلك الشاب، وهو ملقى أمام سيارته، غارقًا فى دمائه، بعد أن ارتطم به فى عنف...

يومها أصابه هلع شديد...

لم يدر ماذا يفعل، بعد أن ارتطم بالشاب، وعبر على جسده بالسيَّارة، قبل أن ينجح مع توتره فى إيقافها، وتلك الأغنية الحديثة مازالت تنطلق عالية...

وفى ذهول مذعور، وقف يتطلَّع إلى جثة الشاب، دون أن يجرؤ حتى على فحصه، والتأكد مما إذا كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة، أم مازالت بقايا الروح تدب فى جسده الصغير...

وفى ذهنه، يومها، تدفقت عشرات المخاوف...

الشرطة....

والتحقيقات....

والسجن...

كل هذا دار فى ذهنه، وهو يتطلع إلى جثة الشاب، قبل أن يتخذ ذلك القرار المخيف، الذى غيَّر مسار حياته كلها...

" أسرع يا (وفيق)... هذا الطريق يخيفنى جدًا... "...

نطقتها (نادية) فى رعب واضح، وسمعها هو جيدًا، ولكن ولسبب ما، كانت قدمه تمنعه من ضغط دوّاسة الوقود فى قوة كافية؛ لعبور تلك الساقية القديمة فى سرعة...

كان وكأنه، فى عقله الباطن، يخشى عبورها، حتى لا يستعيد ذكرى ذلك اليوم الرهيب...

ولكنه استنفر كل أعصابه، وضغط الدوّاسة...

وأسرعت السيارة...

و...

وفجأة، تجمّدت الدماء فى عروقه، وتصاعد نبضه إلى درجة مخيفة، واتسعت عيناه عن آخرهما فى رعب، وضغط فرامل السيارة بكل قوته، وانطلقت من حلقه، على الرغم منه، شهقة قوية، جعلت (نادية) تصرخ فى رعب:

- ماذا هناك؟!

حدّق مرعوبًا، فى ذلك الشاب الريفى، الذى جلس مستندًا إلى دوّارة الساقية القديمة المهجورة، ممسكًا نايًا صغيرًا، فى مشهد، كان من المفترض أن يصنع مع ضوء القمر صورة بديعة، ولكنه بدا بالنسبة له أشبه بمشهد رعب، فى فيلم من الدرجة الاولى...

ولمحت (نادية) ذلك الشاب بدورها، فانتفضت لحظة، قبل أن تهتف:

- هناك شاب عند الساقية، يمكنه أن يدلنا على الطريق.

لم يجبها (وفيق)، وهو يحدّق فى ذلك الشاب فى رعب، وقلبه



يخفق، كما لم يخفق من قبل...

لم يكن من الممكن أن يرى ملامح ذلك الشاب، الذى راح يعزف لحنًا حزينًا على الناى، وكأنه لا يبالى بوجودهما على الإطلاق...

وفى لهفة وأمل، هتفت (نادية):

- سله عن الطريق يا (وفيق).

ارتجف (وفيق) لمطلبها، ولم يتصوّر قط أن يقترب من ذلك الشاب، مع تلك الذكريات المخيفة، التى راحت تعصف بكيانه كله...

ذكريات تلك اللحظة، التى حمل فيها جثة الشاب الذى صدمه، وألقى بها فى تلك الساقية القديمة المهجورة...

وعاد كيانه كله يرتجف، وهو يتذكّر كيف ندت من الشاب آهة ألم، عندما ارتطم بقاع الساقية الجاف...

لم يكن قد لقى مصرعه يومئذ بالفعل...

كانت فيه بقايا من روح...

ولكن الساقية كانت مهجورة وضيقة، حتى إنه لم يجرؤ على الهبوط فيها لإنقاذه...

ولهذا أقدم على أحقر عمل فى حياته...

لقد فرّ من المكان، تاركا ذلك الشاب خلفه، يلفظ أنفاسه الأخيرة، فى قاع الساقية المهجورة...

" سأهبط أنا لأسأله... "...

قالتها (نادية) فى حدة، فالتفت إليها فى عصبية، وقال:

- لا... لن تفعلى.

قالت فى غضب:

- ولن أبقى هنا أيضًا، وأمامنا فرصة لمعرفة الطريق.

صمت لحظات، محاولًا السيطرة على أعصابه، ودفع عقله إلى التفكير السليم...

أية خرافات تسيطر عليه، فى لحظاته هذه؟!

إنه لم يؤمن أبدًا بالأشباح والعفاريت...

إنه مجرَّد شاب حالم، تصادف وجوده فى المكان نفسه...

مجرَّد مصادفة...

و(نادية) على حق... لن يضيع فرصة الطريق، بسبب مخاوف بدائية سخيفة.... التقط نفسًا آخر عميقًا، وفتح باب السيارة فى حسم، مغمغمًا:

- سأسأله أنا...

تعالى عواء ذئب آخر من بعيد، آثار فى كيانه رجفة شديدة، وإن بدا من الواضح أن عازف الناى لم يبال به إطلاقًا، شأن من اعتاد هذه الأمور، فدفع قدميه دفعًا فى اتجاهه، حتى صار على قيد خطوات منه، فسأله فى صوت، عجز عن إخفاء ارتجافته الواضحة:

- هل يمكنك أن ترشدنا إلى طريق للخروج من هنا إلى المدينة؟

توقف الشاب عن العزف، وغمغم:

- مرحبًا.

لم يدر (وفيق) ما الصلة بين سؤاله وجواب الشاب، فمال نحوه يكرر سؤاله:



- كيف نخرج من هنا إلى المدينة؟!

كرر الشاب بنفس اللهجة:

- مرحبًا.

ثم استدار إليه فى بطء، وابتسم ابتسامة كبيرة، وهو يضيف:

- إننى انتظرك منذ زمن طويل.

وتراجع (وفيق) كالمصعوق، وهو يطلق صرخة رعب هائلة، واتسعت عيناه عن آخرهما، مع تلك الدماء، التى تغرق وجه الشاب وجلبابه...

وبقفزة أشبه بالذئاب، انقض عليه الشاب، ودفعه أمامه...

إلى قاع الساقية القديمة...

وصرخ (وفيق)...

وصرخت (نادية)....

وظلت تصرخ...

وتصرخ...

وتصرخ....

" ولكن هذا مستحيل يا سيدتى! ".

قالها وكيل النيابة، وهو يتطلع إلى (نادية)، التى انهارت تمامًا، قبل أن يلتقط تقرير البحث الجنائى، ويواصل:

- تلك الساقية مهجورة، منذ أكثر من عقدين من الزمان، وما تبقى من فتحتها، لا يكفى لمرور جسد فى حجم جسد زوجك.

هتفت فى انهيار:

- ولكننى رأيت الشاب يدفعه داخلها، ويهبط معه فيها.

هزَّ وكيل النيابة رأسه، وهو يقول:

- تقرير البحث الجنائى، والمعامل الجنائية، وحتى الطب الشرعى، لا تتفق مع روايتك أبدًا.... قاع الساقية كان مغمورًا بالرمال والطين الجاف، ولا يوجد أى أثر لسقوط أى شىء فيها مؤخرًا، ولقد عثرنا فيها على جثة قديمة لشاب، من الواضح أنه لقى مصرعه فى أعماقها، منذ عشر سنوات على الأقل... أخبرينا الحقيقة.... ماذا حدث هناك بالفعل؟!

وبكت (نادية) فى انهيار، وعقلها يستعيد آخر كلمة سمعتها من ذلك الشاب، قبل أن يختفى مع زوجها فى قاع الساقية المهجورة...

"مرحبًا ".

• • •



# إلى الأبـــد...

انتفخت أوداج (منير) فخرًا وزهوًا، وهو يتحسَّس سيارته الجديدة، التى ابتاعها له والده، فى عيد مولده الحادى والعشرين...

كان ابنًا وحيدًا لمياردير كبير، من مليارديرات الصناعة، يمتلك عددًا من المصانع، فى مختلف الصناعات...

ثياب، وأدوات كهربية، وثلاجات، ومواقد طهى، ومصانع للسيراميك والأدوات الصحية، وغيرها...

وكل هذا بالإضافة إلى عدد من المطاعم الفاخرة...

وفندقين...

وقرية سياحية شهيرة...

كان يمتلك العديد من كل شىء...

حتى الزوجات...

وعلى الرغم من زواجه بتسع زوجات مختلفات، نصفهن من دول (أوروبا) و(آسيا)، إلا أنه لم ينجب سوى (منير)...

فقط (منير)...

ولأنه ابنه الوحيد، الذى سيرث الثروة الطائلة، لم يبخل عليه الوالد الملياردير بأى شىء على الإطلاق...

كان يلبى كل مطالبه...

بلا استثناء...

وبلا مناقشة...

ولهذا نشأ (منير) مدللًا، مغرورًا، أنانيًا، لا يرى فى الحياة كلها سوى نفسه...



ونفسه وحدها...

وعندما شاهد إعلان تلك السيارة الرياضية الجديدة، التى تحوى نظامًا إلكترونيًا رقميًا متطورًا، يجعلها أشبه بشخص آلى يجرى على عجلات، أصرَّ على أن يكون أول من يمتلكها فى (مصر) كلها...

كانت السيارة تساوى مليون دولار تقريبًا، وعلى الرغم من هذا، لم يتردَّد الأب فى إرسال مندوب خاص من شركاته؛ لابتياع النسخة الأولى من السيارة، وشحنها معه إلى (مصر)....

ولقد بلغت رسومها الجمركية مبلغًا خرافيًا، أدهش رجال الجمارك أنفسهم، ولكن ما أدهشهم أكثر، هو تلك البساطة والسرعة، اللتين تم بهما دفع الرسوم، حتى تخرج السيارة إلى الشارع فى أسرع وقت ممكن...

وفى دائرة المرور، التف الكل حول السيارة، يتأملونها فى إعجاب وانبهار...

وحسد أيضًا...

وهذا ما انتفخت له أوداج (منير)...

كان دومًا يعشق أن يبهر الناس بما لديه...

وبما يمتلكه...

ولقد انتفخت أوداجه أكثر، عندما خرج الكل يلقون نظرة على سيارته، وهى تغادر دائرة المرور، حاملة ذلك الرقم المميَّز، الذى دفع فيه ثروة حقيقية أيضًا...

وحتى فى الطريق، كانت السيارات وعيون المارة تلاحقه...

الكل انبهر بالسيارة...

والكل حسد راكبها...

وعلى الرغم من أن منزله لا يبعد سوى دقائق قليلة عن دائرة المرور، فقد طاف (منير) نصف شواع (القاهرة) بسيَّارته؛ ليتمتع بانبهار الناس، قبل أن يعود بها إلى قصر والده المنيف، وهو يكاد يحترق شوقًا؛ للذهاب بها إلى كليته، فى الصباح التالى، ورؤية الانبهار والحسد فى عيون زملائه...

وبخاصة (جينا)...

إنها أجمل فتاة، فى كليته كلها، وطالما حاول جذب انتباهها ومحبتها إليه، ولكنها لم تبد يومًا اهتمامًا بثرائه البالغ، ولا حتى وسامته المفرطة...

هذا لأنها- وياللعجب- وقعت فى حب زميله (أمجد)...

يالها من حمقاء !!

إنه لم يدرك أبدًا لماذا اختارت غادة مثلها، ذلك الشاب المتواضع، الذى يرتدى طوال الوقت سروالًا رخيصًا، من الجينز المحلى، وقمصانًا يبتاعها حتمًا من الأسواق الرخيصة، فى (العتبة)، أو (وكالة البلح) !!

ولم يحاول أبدًا أن يسألها عن السبب...

كبرياؤه لم يسمح له بهذا...

وسخاؤه الشديد مع زملائها، لم ينجح فى جذب انتباها...

ولا اهتمامها...

كان يدعو الجميع إلى غداء فاخر، فى فندق والده الفخم، فتعتذر هى؛ لتقضى بعض الوقت مع (أمجد)، فى كافيتريا الكلية المتواضعة...

وهذا يثير حنقه بشدة...

وغيرته أيضًا...



أو أنه، لو شئنا الدقة، يشعر بجرح غائر فى كبريائه...

ولكن كل هذا سينتهى حتمًا، فى الصباح التالى...

سيارته ستبهر الكل بلا شك...

حتى هى...

امتلأت نفسه بالفكرة، وراح يتخيَّل نظراتها لسيارته، التى اختار لها لونًا أحمر زاهيًا، يستحيل ألا تلاحظه عين...

وعندما وصل إلى قصر والده، كانت الفكرة قد اختمرت فى رأسه تمامًا، حتى إنه لم ينتبه إلى والده، وهو يتجه إليه، حتى سمعه يقول:

- ألف مبروك.... السيارة تستحق بالفعل....إنها مبهرة...

ابتسم (منير) ابتسامة واسعة، وهو يقول:

- حقًا؟!

تحسَّس والده جسم السيارة، وهو يغمغم:

- دون أدنى شك.

ثم اعتدل يردف مبتسمًا:

- ولكنها فى النهاية مجرَّد سيارة.

أجابه (منير) فى غضب:

- ليست مجرَّد سيارة...إنها أروع سيارة فى العالم.

غمز والده بعينه، قائلًا:

- مؤقتًا.

نظر (منير) إليه فى دهشة، متسائلًا:

- ماذا تعنى؟!

ضحك والده، وهو يقول:

- أعنى أنك ابنى الوحيد، وأنا أعرف طبائعك جيدًا...ستنبهر بالسيارة بعض الوقت، ثم سرعان ما تسأمها، وتمل ركوبها، وتطالب بلعبة جديدة.

هتف (منير) فى عناد:

- خطأ... لن أتخلى عن هذه السيارة أبدًا.

غمز والده بعينه مرة أخرى، وهو يقول مداعبًا:

- هل تراهن؟!

هتف (منير) بكل حماسه:

- أراهن.

اعتدل والده، وقال بنفس المرح:

- سأمنحك ستة أشهر.

أجابه (منير) فى إصرار:

- ولا حتى ست سنوات.

ثم ربَّت على السيارة، كما لو كانت معشوقته، وهو يضيف:

- هذه السيارة ستبقى معى إلى الأبد.

ضحك والده، وهو يقول:

- سنرى.

ثم أشار إليه، مستطردًا:

- أريدك أن تأتى بها غدًا إلى مصنع الأوناش.

ارتفع حاجبا (منير)، وهو يقول:



- ولماذا؟!

قال والده فى دهشة مستنكرة:

- هل نسيت أننى طلبت منك هذا، من أكثر من أسبوع، حتى تحضر اجتماعنا مع الصينيين؟!إنك سترث كل هذا من بعدى يا (منير)، وأريدك أن تتعلم كيف أدير العمل، وأعقد الصفقات.

انعقد حاجبا (منير) فى شدة، وهو يقول:

- لا... ليس غدًا.

حملت نبرة والده شيئًا من الغضب، وهو يقول:

- الاجتماع لا يمكن تأجيله.

قال (منير) فى حدة:

- لن أحضره إذن.

بدا الغضب على وجه والده، فاستدرك فى سرعة:

- لدى اختبار هام فى الكلية صباح الغد.

تطلّع إليه والده مليًا، وهو يدرك أنه كاذب، إلا أنه لم يملك إلا أن يقول:

- ألا يمكنك الحضور بعد الاختبار؟!

أجابه (منير) فى حماس:

- بالتأكيد.

رمقه والده بنظرة صامتة معاتبة، ثم انصرف وهو يقول:

- فليكن.... سأحاول تأخير الاجتماع بقدر الإمكان.

راقبه (منير) وهو ينصرف، ثم عاد يربّت على سيارته، مغمغمًا فى اعتزاز:

- أبى على خطأ هذه المرة....ستبقين معى إلى الأبد.

لم يستطع النوم تلك الليلة، وهو يفكّر فى (جينا)، وكيف أنها ستنبهر بالسيارة، وتنسى (أمجد)، ولو لحظات...

مرَّ عليه الوقت بطيئًا، دون أن يستطيع حتى إغلاق عينيه، والفكرة تدور فى رأسه وتدور، حتى أشرقت الشمس، فأسرع يرتدى أفخر ثيابه، ويحيط معصمه بساعة من الذهب الخالص، والتقط سلسلة مفاتيح، كان يدخرها لهذا المناسبة، تتدلّى منها ماسة براقة، ووضع فيها مفتاح السيارة الجديدة، وهبط ليربّت عليها مرة أخرى، قبل أن ينطلق بها إلى الجامعة...

لم يستطع- للهفته- انتظار موعد حضور زملائه، لتلك الجامعة الخاصة، وإنما انطلق بسيارته الجديدة، وبأقصى سرعة، عبر الطريق الدائرى، فى طريقه إلى الجامعة...

كان جفناه مثقلان من عدم نومه، وحماسه يسيطر على عقله ومشاعره، و...

وفجأة برزت سيارة النقل الضخمة، ذات المقطورة الكبيرة...

وضغط (منير) فرامل سيارته الجديدة بكل قوته...

ولكن العوامل اجتمعت؛ لتجعل رد فعله بطيئًا...

أكثر مما ينبغى...

وكانت صدمة والده هائلة، عندما بلغه الخبر...

ولقد تصاعدت صدمته ألف مرة، عندما رأى السيارة بعد الحادث...

لقد ارتطمت بها سيارة النقل الثقيلة...

ثم عبرت فوقها...

بكل ثقلها...



وبأربعة أزواج من الإطارت الهائلة الثقيلة...

كانت صدمته هائلة، مع مصرع ابنه، ووريثه الوحيد....

وكانت أشد هولًا، عندما أخبروه أن جسده قد امتزج بحطام السيارة، وصار من المستحيل تخليص بقاياه من حطام السيارة...

وبعد عدة محاولات فاشلة، لم يعد هناك مفر من قبول الحل الأخير...

والوحيد...

لا مفر من دفن ابنه مع السيارة، فى كيان واحد...

ولقد كانت الجنازة هائلة، حضرها مئات من أصدقاء الأب المكلوم، وآلاف من العاملين فى مصنعه...

وحضرها كل زملاء (منير)...

حتى (جينا) و(أمجد)...

ولقد شاهدوا جزءًا فقط من السيارة...

ولم ينبهروا...

فقط بكوا وانتحبوا...

ولكن (منير) ربح رهانه، وحقق ما أصر عليه منذ البداية...

لقد ظلّت سيارته الجديدة معه...

إلى الأبد.

• • •

# رنـــات

"إش.. إش.. ده إيه الحلاوة دى"

انتفخت أوداج (فتحى)، عندما استقبله صديقه (حمزة) بهذه العبارة، فى المقهى الذى اعتاد الجلوس عليه، فى الحى الشعبى الشهير، وأحاطت أصابعه بذلك الموبايل الفخم فى زهو واضح، وهو يلقى جسده على المقعد المعدنى، قائلاً:

- آخر موديل.. فيه كاميرا..

ضحك صديقه (فتحى)، وهو يقول:

- لطشته منين ده يا واد.. ده يجيله ييجى بألف جنيه..

لوَّح (حمزة) بذراعه كلها مستنكرًا، وهو يهتف:

- يا عم روح.. ده المستعمل بتاعه يعمل ألفين بالميت فى السوق..

انبهر (حمزة) بالرقم، الذى يساوى يوميته كعامل محارة، فى مائة يوم كاملة، ومال نحوه يسأله:

- واتحصلت عليه إزاى ده ياد؟

هزَّ (فتحى) كتفيه، وهو يقول بنفس الزهو، وظهره يلتصق بالمقعد فى عنتظة:

- زى الناس..

كان جوابًا عامًّا، لا يعنى شيئًا بالتحديد، وعلى الرغم من هذا فقد اكتفى به (حمزة)، وتجاوز سؤاله كله، عندما أضاف (فتحى)، فى صوت قوى، يخالف تمامًا صوته الضعيف المستكين، الذى التصق به، بعد أسابيع طويلة من البطالة:

- والليلة دى المشاريب على حسابى كمان..

كانت ليلة نادرة، دفع فيها (فتحى) حساب المشروبات، لثلاثة من



أصدقائه، بورقة من فئة العشرين جنيهًا، وتناول بعض شطائر اللحوم، وزجاجة من البيرة المثلجة، قبل أن يستعد للانصراف، فضحك صديقه (حمزة)، وهو يودعه، قائلاً:

- يا إما أنت لطشه، يا ورثت ورث تقيل..

ولم يجب (فتحى) عبارته، أو يعلق عليها، وهو يتجه نحو البناية، التى يقيم فى حجرة صغيرة على سطحها، والتى تسد تلك الحارة الصغيرة بعد ناصية المقهى..

كانت حجرته تعلو خمسة طوابق، صعدها وهو يترنح، من فرط الزهو والنشوة، وما إن دخل حجرته الصغيرة، حتى أغلق الباب خلفه، وأسند ظهره إليه، وتطلَّع إلى ذلك الموبايل الفاخر، وذهنه يستعيد أحداث بداية الليلة..

كان يسير فى ذلك الشارع المقفر المظلم، عندما لمح ذلك الشاب..

شاب فى الخامسة عشرة من عمره على الأكثر، يرتدى ثيابًا تشف من الثراء والدعة، ويمسك ذلك الموبايل الأنيق..

كان من الواضح أنه قد ضل طريقه، لسبب أو لآخر؛ إذ لم يكن من المنطقى أبدًا أن يتواجد شاب مثله، فى منطقة كهذه..

وبالنسبة له، بدت هذه فرصة، ما بعدها فرصة..

وفى شراسة اكتسبها من حياته القاسية، استل مطواته، واندفع نحو ذلك الشاب، وصرخ فى وجهه، يأمره بإعطائه ذلك الموبايل، وكل ما يحمله من نقود أيضًا..

وكما توقَّع تمامًا، أصيب الشاب بفزع رهيب، وأعطاه الموبايل، وعشرين جنيهًا كان يحملها، وتضرع إليه أن يتركه لحاله بعدها..

وكان من الممكن أن يتركه (فتحى)، بعد أن استولى على ساعته أيضًا، إلا أن شيطانًا ما فى أعماقه دفعه إلى فكرة خسيسة مجنونة، لم يفق منها إلا وهو يسحب مطواته من قلب ذلك الشاب المسكين، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما، فى مزيج من الألم والرعب، وحاول منع ذلك النهر الدموى، الذى تفجَّر من صدره، وحملت عيناه نظرة اتهام، لم تلبث أن تحوَّلت إلى لمحة بغض وكراهية، قبل أن يسقط عند قدمى (فتحى) جثة هامدة..

وبأقصى سرعته، انطلق (فتحى) يعدو مبتعدًا، ويتنقَّل من شارع إلى آخر، حتى بدا له أنه قد ابتعد تمامًا عن مسرح جريمته، وأن أحدًا لن يصل إليه، فتوقَّف، والتقط أنفاسه، وذهب للقاء (حمزة) فى المقهى..

وعلى فراشه الرث، شبه المتهالك، أمسك الموبايل، وقلَّبه بين يديه، محاولاً تخمين سعره الحقيقى، والمبلغ الذى سيحصل عليه، عندما يذهب لبيعه فى سوق الحرامية، يوم الجمعة القادمة..

ولأن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، فقد غلبه النوم، وسقط الموبايل من يده على الفراش، وراح فى سبات عميق، و...

وفجأة انطلق رنين الموبايل..

انطلق على نحو ارتجفت معه أوصاله كلها، ووثب لها جسده بأكمله، واتسعت به عيناه، وهو يحدِّق فيه فى ذعر، قبل أن ينتبه إلى الموقف، ويختطفه بحركة حادة، محاولاً معرفة رقم المتصل..

إنهم أهل ذلك الشاب حتمًا، وقد أقلقتهم غيبته، ويحاولون الاطمئنان عليه عبر الموبايل..

ولكن الشاشة كانت خالية، لا تحمل أية أرقام، والرنين يتصل..



ويتصل..

ويتصل بلا انقطاع..

وفى أعمق أعماقه، تصاعد توتر لا محدود، من ذلك الرنين المتصل، فقلَّب الموبايل مرة أخرى بين يديه، حتى عثر على زر إغلاقه، فضغطه بكل قوته، وعاد إلى نومه..

لم يدر كم استغرق فى النوم هذه المرة، ولكنه استيقظ على نفس النحو المذعور، وعاد يحدِّق فى الموبايل، المستقر إلى جواره على الفراش، ورنينه يتردَّد بصوت تضاعف علوه، مع صمت الليل..

ولثوان، حدَّق فيه بشىء من الذعر، فهو يتذكَّر جيدًا أنه قد أغلقه تمامًا..

لم يوقف رنينه فحسب، ولكنه أغلقه..

أو ربما خيِّل إليه هذا..

لم تسعفه ذاكرته جيدًا، فمال يتطلَّع مرة أخرى إلى الشاشة، التى لم تحمل أية أرقام كالمرة السابقة، ثم ضغط زر إغلاق الموبايل، ليتوقَّف الرنين على الفور..

وفى هذه المرة تساءل، لماذا ترك الشريحة فى الموبايل؟

وجودها هو سبب ذلك الرنين المزعج، الذى يثير رجفة عجيبة فى أوصاله..

وفى عصبية، فتح الموبايل، والتقط منه الشريحة، واتجه نحو النافذة الصغيرة، المطلة على الشارع، وألقاها بكل قوته..

وعاد للنوم..

ولكن فجأة انطلق رنين الهاتف مرة أخرى..

انطلق بصوت أكثر اتصالًا..

وأكثر ارتفاعًا..

وهنا حدّق فيه (فتحى) بمنتهى الرعب..

لقد انتزع الشريحة، وألقاها من نافذته، فكيف يمكن أن ينطلق الرنين..

وبأصابع مرتجفة، التقط الموبايل، وتطلّع إلى شاشته، التى لم تحمل أية أرقام كالمعتاد، ثم استجمع شجاعته وضغط زر الاتصال، وهو يضع الموبايل على أذنه..

ولوهلة، لم يسمع أية أصوات، ثم خيّل إليه فجأة أنه يسمع صوتًا باهتًا مبحوحًا، يأتى من بعيد، بهمهمة غير مفهومة..

صوت ذكره بشىء ما وأطلق قشعريرة باردة كالثلج فى أوصاله أيضًا..

وبحركة حادة، كمن لدغه عقرب، ألقى (فتحى) الموبايل بعيدًا، وتراجع فى فراشه، محاولًا السيطرة على جسده الذى راح يرتجف كريشة فى مهب الريح..

وفى أعمق أعماق عقله، راح يسترجع كل ما سمعه من معلومات عن أجهزة الموبايل بكل أنواعها..

نعم.. لقد سمعهم يتحدّثون عن موبايل بروحين..

موبايل يمكنك أن تضع فيه شريحتين، برقمين منفصلين..

هذا الموبايل من ذلك الطراز حتمًا، وهو ألقى إحدى الشريحتين، وظلت الثانية داخله..

نعم..



هذا ما حدث..

الفكرة جعلته يقفز ليلتقط الموبايل، ويعبث فيه مرة أخرى؛ بحثًا عن تلك الشريحة الثانية..

وبينما يفعل هذا، انطلق رنين الموبايل بين أصابعه بغتة، حتى إنه أطلق صرخة رعب، وألقاه بعيدًا عنه..

لم يدر ماذا حدث بالضبط، ولا كيف حدث هذا، ولكن الموبايل لم يكد يرتطم بالأرض، حتى توقّف فجأة عن الرنين، وانبعث منه صوت ما..

صوت لم يبد مسموعًا أو واضحًا من موضعه؛ لذا فقد اقترب منه فى حذر، وانحنى يلتقطه بأصابع مرتجفة، محاولًا فهم ما يقوله ذلك الصوت..

كان صوتًا عجيبًا، يبدو وكأنه ينبعث من أعماق سحيقة، ويردّد كلمة ما، اضطر (فتحى) إلى وضع الموبايل على أذنه ليسمعها..

وسمعها..

وانتفض جسده كله بمنتهى العنف..

فذلك الصوت، الذى يأتى من أعماق سحيقة، كان يردّد كلمة واحدة..

".. قاتل"

وبكل رعب الدنيا، انتزع (فتحى) بطارية الموبايل، وألقاها بكل قوته، لترتطم بالجدار، وترتد إلى منتصف الحجرة بعنف..

ولكن جسده لم يتوقّف عن الارتجاف..

تلك الليلة لا تريد أن تمضى أبدًا، على الرغم من أنه، ولأوّل مرة فى حياته، ينتظر شروق الشمس بفارغ الصبر..

فحجرته بلا كهرباء، وهو يعتمد دومًا على أضواء الشارع لإنارتها؛ لأنه لا يملك ما يدفع به تكاليف استهلاك التيار الكهربائى..

ومنذ سنوات، اعتاد العيش فى الظلام، وألفه..

إلا فى هذه الليلة..

ويجسد لم تتوقف ارتجافته، عاد إلى الفراش، وجذب الغطاء نصف الممزق عليه، و..

وانطلق رنين الموبايل..

وهوى قلبه بين قدميه بمنتهى العنف..

مستحيل أن يحدث هذا..

مستحيل..

ذلك الموبايل الملعون بلا بطارية..

وبلا شريحة..

ولكن رنينه ينطلق، ويدوى فى الحجرة، وربما فى المنطقة كلها..

وعلى الرغم من رعبه وهلعه، وثب يختطف ذلك الموبايل من أرضية حجرته، واندفع به نحو النافذة، وألقاه بكل ما يملك من قوة..

ومن موقعه رآه يهوى نحو الأرض، ورنينه يخفت..

ويخفت..

ويخفت..

وهنا فقط شعر (فتحى) بالارتياح..

وبالتهالك أيضًا..

ذلك الانفعال العنيف أرهقه، وكاد يفقده صوابه..



وعلى الرغم من رعبه وارتياعه، سقط رأسه ثقيلًا على فراشه، وسقط جفناه متثاقلين، وانهار فى نوم بلا قرار..

وانطلق رنين الموبايل مرة أخرى..

وفى هذه المرة، كاد قلبه يتوقَّف، وهو يثب بكل رعب الدنيا، ويحدِّق فى الموبايل، المستقر إلى جواره مباشرة، ورنينه يتصل فى إلحاح..

لا.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقة..

إنه كابوس..

كابوس رواده فى نومه، بسبب ما فعله..

لقد ألقى الموبايل من النافذة بنفسه، ولا يمكن أن يعود إليه، إلا لو كان هذا كابوسًا..

نعم.. إنه كابوس، والوسيلة الوحيدة لتجاوزه، هى أن يواجهه..

ومع تلك الفكرة الجديدة، امتدت أصابعه المرتجفة تمسك الموبايل، وتضغط زر الاتصال فيه، ثم ارتفعت به إلى أذنه..

وفى هذه المرة أيضًا.. سمع الكلمة نفسها..

.. "قاتل"

وفى هذه المرة، ميَّزها جيِّدًا..

إنه صوت ذلك الشاب الذى قتله فى المساء..

وصوته لا يأتى من أعماق سحيقة..

بل من قبر..

قبر فى أعمق أعماق الأرض..

وانهار كيان (فتحى) كله، وصرخ:

- عايز منى إيه؟

وهنا انطلقت صرخة هادرة من الموبايل:

- قاتل..

وفى هذه المرة كانت الصرخة واضحة قوية، وامتزجت بالصرخة الرهيبة، التى أطلقها (فتحى)، التى أيقظت جيرانه كلهم..

وعندما صعد الجيران إلى حجرته، كان المشهد بشعًا، على الرغم من شروق الشمس..

لقد كان (فتحى) ملقى أرضًا جثة هامدة، والدماء تنزف من أذنيه بغزارة، وأصابعه متشبثة بموبايل من طراز باهظ الثمن.. للغاية..

• • •



## حبيبتـــى...

" حبيبى "...

امتلأ قلبى بتوتر شديد، عندما سمعت صوتها ينادينى...

فى الماضى، كان قلبى يختلج فرحًا، كلما سمعت صوتها، فى أية لحظة من الليل أو النهار...

كنت أحبها...

أحبها من كل قلبى وكيانى...

وكنت أعشق صوتها العذب، كلما نطق باسمى، أو همس بحبى...

أما الآن، فالأمر يختلف...

لم أشعر بها وهى تقترب منى، ولكننى حاولت تجاهل هذا، متظاهرًا بالانهماك فى الرسم الهندسى، الذى يفترض أن أقدّمه لرئيسى فى الصباح الباكر، ولكننى لم أستطع السيطرة على التوتر المتزايد فى أعماقى، وخاصة عندما سمعت صوتها خلفى مباشرة، وهى تهمس:

- اشتقت إليك.

تجاهلت عبارتها مرة أخرى، لعلها تنصرف وتتركنى لحالى، ولكنها واصلت، دون أن تبالى بتجاهلى لها:

- أما زلت تعمل حتى ساعة متأخرة؟

غمغمت فى توتر:

- المفترض أن أقدّم هذا فى الصباح الباكر.

همست فى نعومة:

- ولكننى هنا.

انعقد حاجباى، وأنا أقول، فى توتر امتزج بشىء من الحدة:



- تأتين دومًا دون موعد.

قالت فى نعومة:

- آتى كلما اشتقت إليك.

رأيتها تدور فى نعومة حول مائدة الرسم، وتنحنى لتلقى نظرة على الرسوم الهندسية، قبل أن تبتسم ابتسامة كبيرة، وتقول:

- تشبه فيلا أحلامنا.

فى الماضى كانت ابتسامتها هذه تسحرنى، أما اليوم...

" أمازلت تذكر أحلامنا؟ "...

قالتها بنفس النعومة، فغمغمت، محاولًا إبعاد نظرى عنها:

- كانت مجرَّد أحلام.

حمل صوتها رنة حازمة، وهى تقول:

- الأحلام يمكن أن تصبح حقيقة، مع قليل من الإرادة...

نفس العبارة التى كانت تردِّدها على مسامعى دومًا، عندما كنا معًا...

نفس الرنة الحازمة فى صوتها، والتى تشعرنى بأننى تلميذ، يقف أمام أستاذته، التى تلقنه درسًا فى الحياة...

" الأحلام تتغير، مع مرور الوقت... "

قلتها فى شىء من العصبية، فاعتدلت ترمقنى بنظرة غاضبة، وهى تقول:

- يبدو أنك لم تعد تحبنى.

زفرت فى توتر، قائلًا:

- أرجوك... أنا منهمك فى عملى.

رمقتنى بنفس النظرة، قبل أن تقول، فى شىء من الحدة:

- كنت تعدنى دومًا بأنك لن تحب سواى.

لم أحاول التعليق على عبارتها، متظاهرًا بالانهماك فى الرسم، فتابعت، وحدتها تتزايد:

- لم تعد حتى ترغب فى التحدّث إلىّ..

غمغمت فى توتر:

- أهذا وقت الحديث عن الحب؟!

قالت فى عصبية:

- كل الأوقات تناسب الحديث عن الحب.

قلت فى حدة:

- وماذا عن وقت العمل؟!

مالت نحوى، على نحو ضاعف من توترى، وهى تقول:

- إنه أفضل وقت للحديث عن الحب.

كانت قريبة منى، على نحو أشعرنى ببرودة فى أطرافى، فاعتدلت لأبعد وجهى عنها، وأنا أقول:

- لو لم يتسلّم رئيسى هذا الرسم صباح غد قد أفقد وظيفتى.

اعتدلت بادية الغضب، وهى تقول:

- يبدو أنك قد نسيت أننى من ساعدك فى الحصول على هذه الوظيفة، التى ترفض اليوم التخلّى عنها من أجلى.

كنت أشعر بتوتر بالغ، كلما نظرت إليها، فى الأشهر الأخيرة، وعلى



الرغم من هذا، فقد أجبرت نفسى على النظر إليها، وأنا أقول:

- لم أنسَ بالتأكيد، ولكن....

لم أستطع إتمام عبارتى، فقالت فى غضب:

- ولكنك نسيت بالفعل.

هززت رأسى، قائلًا فى توتر، كاد يبلغ ذروته:

- أنت تعلمين أن الظروف كلها تغيَّرت.

اكتسى وجهها بغضب شديد، وهى تقول:

- الظروف أم القلب؟!

تطلعت إليها فى صمت، ودون ان أنبس ببنت شفة، فتابعت فى حدة:

- إنها (بثينة).... أليس كذلك؟!

شعرت بارتباك حقيقى، وأنا أشيح بوجهى، قائلًا:

- (بثينة) مجرَّد زميلة عمل.

خشيت حقًا النظر إلى وجهها، وهى تقول:

- محاولة سخيفة.

أدرت رأسى فى بطء، محاولًا النظر إليها، وكل ذرة فى كيانى تمنعنى من هذا، وحتى لسانى عجز عن قول أى شىء، فأضافت هى فى غضب:

- تنسى أحيانًا أننى أستطيع رؤية الحقيقة فى عينيك.

مرة أخرى عجز لسانى عن النطق، فدارت حولى بنفس النعومة، وهى تقول:

- أسلوبك فى التعامل معها، ونظراتك الحالمة إليها، وصوتك المفعم بالحرارة، عندما تتحدث إليها... كل هذا لا يوحى أبدًا بأنها مجرَّد زميلة عمل.

غمغمت فى صعوبة:

- الواقع أننى...

قاطعتنى فى حدة:

- الواقع أن تلك الحقيرة قد استغلت غيابى؛ لتتقرب منك، وتلقى شباكها حولك، وتوقعك فى حبائلها، وتحتل مكانى فى قلبك.

غمغمت فى عصبية:

- لا تصفيها بالحقيرة.

هتفت:

- أرأيت؟!

مرة أخرى أشحت بوجهى، دون أن أجيب...

كنت أعلم أنها ستكشف كذبى، مهما قلت أو فعلت...

ولم أستطع أن أبوح لها بالحقيقة...

فأنا بالفعل غارق فى حب (بثينة)...

غارق فى عشق رقتها، وحنانها، وبساطتها...

أذوب مع ابتساماتها العذبة...

أهيم مع كلماتها الرقيقة الدافئة...

أعشق مجرد التواجد معها فى مكتب واحد...

إنها بالفعل حبيبتى...

"لقد وعدتنى بأنك لن تحب سواى..." ...

قالتها فى ضراعة باكية، فالتقطت نفسًا عميقًا، فى محاولة لتهدئة أعصابى، قبل أن أغمغم:



- أنت تعلمين أننى قد حاولت.

قالت فى مرارة:

- المحاولة لا تكفى.

غمغمت فى عصبية:

- انفصالنا لم يكن بإرادتى.

قالت فى لهفة:

- لو أنك تقصد المشاكل المادية، فمن الممكن أن...

قاطعتها فى حدة:

- تعلمين أننى لم أقصد هذا.

تراجعت فى أسى، قائلة:

- أنسى أحيانًا.

التقطت نفسًا عميقًا آخر، وقلت:

- لقد احتملت فترة طويلة، ولكن من الضرورى أن أواصل حياتى.

رمقتنى بنظرة حزينة، وهى تقول:

- مع (بثينة)؟!

خفضت عينىَّ، وأنا أتمتم فى توتر:

- هى أو غيرها.

صمتت لحظات، قبل أن تقول فى حزن:

- هى أفضل من غيرها.

شعرت بصوتها يبتعد عنى، وهى تضيف:

- كانت صديقة عمرى على الأقل.

بقيت صامتًا، لا أحاول التعليق على عبارتها، حتى انصرفت، وأيقنت أنها لم تعد هناك، فالتقطت نفسًا عميقًا آخر، وتطلعت إلى لوحة الرسم الهندسى...

نفس الحوار فى كل ليلة...

ونفس النهاية...

أعترف أننى كنت أحبها من كل كيانى...

ولكن الحياة يتحتَّم أن تستمر...

وتساءلت وأنا أعاود عملى: هل سينتهى هذا العذاب يومًا، لو أننى تزوَّجت (بثينة)، وواصلت حياتى، أم أن حبيبتى السابقة ستواصل زياراتها اليومية لى، منذ أن....

ماتت.

• • •



# زهور الربيع...

" هل تؤمن بالأشباح والعفاريت؟! "...

لم يكد (برعى) يسمع السؤال، من تلك الصحفية الشابة، التى ألقته عليه فى اهتمام، حتى انفجر يقهقه ضاحكًا، وهو يشير بكلتا يديه، قائلًا:

- أية أشباح وأية عفاريت يا آنسة؟! إننى تربى أبًا عن جد، ولم أختبر مثل هذه الأشياء فى حياتى قط، على الرغم من أننى أقيم وسط المقابر، منذ وعيت عيناى الدنيا.

بدت الصحيفة الشابة أكثر اهتمامًا، وهى تسأله:

- إذن فأنت تعتبر كل هذا مجرَّد خرافات.

هتف فى حماس:

- بالتأكيد.

ثم مال نحوها، مستطردًا:

- هذه أمور يتداولها العامة، تعبيرًا عن خشيتهم من الموت، أما نحن الذين نحيا مع الموت، فهى لا تؤثر فينا قط.

قالت الصحفية الشابة، وهى تنهى حديثها:

- من الواضح أنه لديك فلسفة خاصة.

أشار بسبَّابته، قائلًا:

- بل أنا رجل واقعى، خبر الحياة طويلًا، وليس لدىَّ مكان للخرافات ومخاوف الطفولة.

أنهت الصحفية الشابة حديثها، وغادرته وهى تسرع الخطى؛ حتى تخرج من منطقة المقابر، قبل غروب الشمس، فتابعها فى سخرية، مغمغمًا:



- ويقولون إن الصحافة تتابع الأمور الهامة.

هزَّ كتفيه مستنكرًا، واستنشق الهواء فى قوة، ثم سعل مرتين، بسبب الأتربة التى تميِّز دومًا هواء موسم الربيع، ودلف إلى منزله، وهو يهتف بزوجته لتعد له طعام الغداء...

ومع مهبط الليل، ساد منطقة المقابر هدوء وسكون شاملين، اعتادهما (برعى) منذ طفولته، وجلس هو على باب منزله الصغير، الذى يتوسط المقابر، يدخن أنفاس الشيشة فى استمتاع، ويسعل كل حين وآخر، مفسدًا سكون وهدوء المنطقة، التى خلت تمامًا من الناس، مع اقتراب عقارب الساعة من منتصف الليل، فنهض يلملم أدواته، استعدادًا للنوم، و...

وفجأة، تناهت تلك الأصوات إلى مسامعه...

أصوات واضحة، لطفلين يمرحان وسط المقابر، وضحكاتهما البريئة تتردَّد فى المكان، على نحو كان يمكن أن يرقص له قلبه طربًا، لو أنه سمعه فى مكان آخر، أو وقت آخر...

وبكل دهشته، سار (برعى) بين المقابر، متتبعًا أصوات الطفلين وضحكاتهما، حتى لاحا له أخيرًا، وهما يعدوان فى مرح، حول قبر حديث نسبيًا، لزوجة شابة، لقيت مصرعها فى سن مبكرة، بعد صراع مع مرض عضال...

كانا يطلقان ضحكاتهما المرحة، وهما يتسابقان فى سعادة، فى هذا الوقت المتأخر، فهتف بهما، وقد حوَّل توتره إلى عصبية مفتعلة:

- ماذا تفعلان هنا؟!

للوهلة الأولى، خُيل إليه أنهما لم يسمعا نداءه، إلا أنهما سرعان

ما التفتا إليه، وتطلعا نحوه فى خوف، جعلهما يقتربان من بعضهما البعض، ويتلاصقان فى خوف...

كانا طفلاً وطفلة، لا يتعدى عمرهما الخامسة، ويتشابهان إلى حد كبير، بملامحهما الجميلة البريئة، التى جعلتهما يبدوان كزهرتين يانعتين من زهور الربيع، نبتتا وسط الموت، حتى إنه شعر بالعطف والشفقة نحوهما، فاقترب منهما، وهو يقول فى حنان، محاولا تهدئتهما:

- من أنتما؟! من أين جئتما؟ وماذا تفعلان هنا؟!

تراجع الطفلان فى خوف، وقد التصقا ببعضهما أكثر، فواصل اقترابه فى حذر، وهو يقول فى حنان أكثر:

- لا تخافا منى... اقتربا... عندى لكما بعض الحلوى.

تراجع الطفلان فى خوف أكبر، ثم افترقا فجأة، ودار كل منهما فى اتجاه مخالف للآخر، حول ذلك القبر الحديث نسبيًا، فأسرع (برعى) نحوهما، هاتفًا:

- لا تخافا.

دار حول القبر بدوره، قبل أن يتوقف ذاهلاً.

فعلى الرغم من أنه قد رآهما بعينيه، وهما يدوران حول ذلك القبر، إلا أن الساحة الصغيرة خلفه كانت خالية تمامًا...

لم يكن بها أثر للصغيرين...

أو لأى شخص آخر...

ولثوان، جمد (برعى) فى مكانه، وشعر بأوصاله ترتجف، فبسمل وحوقل، وتلفّت حوله أكثر من مرة، قبل أن يغمغم مضطربًا:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..



دار حول القبر مرتين، فلم يجد أدنى أثر للطفلين، فبسمل وحوقل مرة أخرى، ثم ابتعد فى خطوات سريعة، عائدًا إلى منزله...

ولكن فجأة، سمع ضحات الطفلين مرة أخرى...

وفى رعب، لم يشعر بمثله فى حياته قط، التفت يحدّق فيهما...

كانا قد عاودا لعبهما، على النحو نفسه، وكأنهما يعيدان المشهد من بدايته، وضحكاتهما تتصاعد فى مرح وسعادة...

وفى هذه المرة، وقف يحدق فيهما فى صمت...

لقد مضى أكثر من عام، منذ أودع طفلا أحد هذه المقابر، ولقد كان طفلاً واحدًا، وليس طفلين...

ثم إنه لم يؤمن يومًا بالأشباح والعفاريت...

دار صراع عجيب فى داخله، وهو يراقب الطفلين يمرحان ويلعبان، ثم استجمع شجاعته، ليقول فى صوت مرتجف:

- ماذا تريدان؟!

لم يكن يأمل شيئًا من سؤاله، إلا أنه فوجئ بهما يتوقفان فجأة، فور أن نطق به، ويلتفتان إليه فى صمت، وعيونهما تحمل حزنًا شديدًا، حار فى تفسيره، فكرر عليهما سؤاله، وقد بدأ يتماسك نسبيًا...

ودون أن ينطق أحدهما بكلمة، أشارا معًا إلى ذلك القبر الحديث، ثم امتلأت عيونهما بالدموع، على نحو جعله يتساءل فى حذر:

- أهى أمكما؟!

علا نحيبهما فجأة، وهما يتشبثان بالقبر، ويبكيان فى حرارة، أدمت قلبه، فاتجه نحوها، قائلا فى حنان مشفق:

- لا تبكيان.

مع اقترابه، التفتا إليه بنفس الخوف السابق، إلا أنهما لم يدورا حول القبر هذه المرة، وإنما وثبا نحوه، وجعلا جسد (برعى) يرتجف، من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه، عندما اختفيا فى شاهده فجأة...

ولقد ظل جسد (برعى) يرتجف، لخمس دقائق كاملة، بعد اختفائهما، وعيناه المتسعتان تحدّقان فى قبر المرأة، قبل أن تنجح قدماه فى أن تتحرّكا نحو القبر؛ ليفحصه فى خوف، امتزج بحسه المهنى...

ومع الوهلة الأولى، أدرك أن يدًا قد عبثت بهذا القبر، منذ فترة قريبة...

وهى يد غير محترفة حتمًا...

لقد حفرت وأزاحت بلاطة القبر فى عجالة، ثم أعادت وضعها، وأهالت عليها التراب، دون أن تسقى الأرض بالماء كالمعتاد...

كل هذا أدركه من النظرة الأولى...

وكل هذا رواه لضابط نقطة الشرطة، فجر اليوم التالى...

وفى حضور رجال الشرطة، ثم فتح قبر المرأة...

وكانت الصدمة ...

جثة المرأة ترقد ساكنة هادئة، وإلى جوارهما جثتان، لطفل وطفلة، فى عمر الزهور، يرتديان الثياب نفسها، التى رآهما (برعى) يرتديانها، وهما يلعبان حول القبر، فى الليلة السابقة...

وعندما فحص الطبيب الشرعى المرافق الجثتين، أشارت إلى أن الطفلين قد لقيا مصرعهما قتلاً بالسم، منذ ثلاثة أيام...

وضرب برعى كفًا بكف، وهو يستعيد ذكرى الليلة الماضية، فى



حين بدأت التحقيقات حول واقعة القتل...

وبسرعة راحت الحقائق تتكشّف...

فالمرأة هى أم الطفلين، وقد تم قتلها بالسم أيضًا، ليصبح بعدها زوجها الحالى وصيًا على ولديها من زوج سابق، لقى ربه بعد ولادتهما بقليل، وترك لها ولهما ثروة معقولة...

وكان من الطبيعى أن يكون زوج الأم هو المشتبه فيه رقم واحد، ولكن التحقيقات أثبتت أنه كان يعالج فى مستشفى بمدينة (الإسكندرية)، خلال الأسبوع الذى تمت فيه جريمة قتل زهرتى الربيع...

وعلى الرغم من ثقة الجميع بأنه مدبر الحادث، إلا أن أحدًا لم يستطع إثبات هذا، وخاصة مع عدم العثور على الفاعل الأصلى، فلم يكن هناك بد من إطلاق سراح زوج الأم؛ لعدم كفاية الادلة...

وفى جلسته الليلية المعتادة، بدأ (برعى) يجمع ساكنى المقابر من الأحياء حوله، ويروى لهم قصته، وكل منهم يضرب كفًا بكف، حتى كانت تلك الليلة...

كان القمر بدرًا، والناس سئمت سماع قصته، فانفضوا من حوله، وجلس هو يدخّن شيشته كالمعتاد...

ثم لمح ذلك الرجل...

رجل نحيل، متوسّط الطول، يسير بخطوات مضطربة، وسط المقابر، وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة...

وعندما مرّ أمامه، تعرّفه (برعى) على الفور...

كان زوج الأم، بشحمه ولحمه...

ولكنه كان يختلف تمامًا، عن آخر مرة رآه فيها، قبيل الإفراج عنه مباشرة...

أيامها كان واثقًا، متغطرسًا، يتحدث بنعرة عجيبة، ويتحدى أن يثبت أى مخلوق تورّطه فى جرائم القتل...

أما هذه المرة، فقد بدا ذاهلًا، رث الثياب، يسير كما لو أنه قد فقد كل شىء فى الدنيا...

وفى فضول حذر، تبعه (برعى)...

كان يسير مباشرة نحو قبر زوجته، الذى أعيد إغلاقه فى إحكام...

ولم يفهم (برعى) ما يحدث، فتقدَّم أكثر فى حذر، ورأى الرجل يسقط على ركبتيه أمام القبر، وهو يقول فى ضراعة بائسة:

- اجعليهما ينصرفان... إنهما يزورانني كل ليلة، وأراهما يلعبان ويلهوان، فى أماكنهما المعتادة.

سرت قشعريرة فى جسد (برعى)، فأرهف سمعه أكثر، والرجل يبكى فى انهيار، ويلمس شاهد القبر، مواصلًا:

- رجوتهما أن يرحمانى، واعتذرت لهما عما فعلته، فأشارا إلى صورتك، وعلمت أنهما يطلبان منى القدوم إليك.

تحوَّلت قشعريرة (برعى) إلى غضب، جعله يرهف سمعه أكثر وأكثر، والرجل يتابع، فى انهيار تام:

- ولقد أتيت لأعترف أمامك... لقد استأجرت قاتلًا، واخترعت موعد العلاج لتنفيذ جريمته... أنا أعطيته السم... نفس السم الذى قتلتك به، عندما سافرت إلى (لبنان)... أنا فعلتها، أنا قتلتك وقتلتهما... إننى أعترف... ولكن ارحمينى... اجعليهما يبتعدان عنى...

شعر (برعى) بغضب شديد، عندما سمع تلك العبارات الأخيرة...

كان الرجل منهارًا بحق، إلا أنه لم يشعر تجاهه بذرة من الشفقة...



لقد رأى أمامه وحشًا مفترسًا، قتل زوجته، وزهرتين بريئتين، دون ذرة من الرحمة أو الشفقة، ببراءتهما وطهارتهما...

ولقد كان يهم بالاتجاه نحوه، ليعنفه فى شدة، أو يلقى القبض عليه، ويخبر الشرطة بما سمعه منه، عندما لاحظ فجأة أمرًا عجيبًا، جعل انتفاضة عنيفة تسرى فى جسده...

لقد كانت بلاطة قبر المرأة، التى أحكم إغلاقها بنفسه، مرفوعة...

وكان القبر مفتوحًا...

وفى نفس اللحظة، التى أدرك فيها هذا، اتسعت عيناه عن آخرهما، مع مرأى الطفلين، وهما يظهران فجأة، على جانبى الرجل، الذى أصيب برعب شديد، جعله يتراجع، صارخًا:

- لا... لا... الرحمة.

كان الطفلان يتقدَّمان نحوه فى بطء، جعله يهب واقفًا على قدميه، وهو يتراجع نحو القبر المفتوح، ملوِّحًا بذراعيه فى ارتياع، هاتفًا:

- اتركانى... لم أعد أحتمل... لم أعد أحتمل...

تعثَّرت قدمه فى بلاطة القبر مع تراجعه، فاختل توازنه، ورآه (برعى) يضرب بذراعيه فى الهواء، بكل رعب الدنيا، محاولًا التشبّث بشىء ما، قبل أن يهوى جسده كله داخل القبر، ويسمع (برعى) صوت ارتطامه بأرضيته...

ومع تأوهات الرجل داخل القبر، التفت الطفلان ينظران إلى (برعى) وعيونهما تحملان براءة الدنيا كلها..

لم ينطق أحدهما كلمة واحدة، ولكن رسالتهما وصلت إليه بوسيلة ما...

وكما لو أنه مسيَّر، استدار (برعى) عائدًا لمنزله، والتقط دلوًا من الماء، وكيسًا من الأسمنت، وعاد بحمله إلى قبر المرأة...

وعلى الرغم من أن الطفلين لم يغادرا مكانهما، ولم يرفعا عيونهما عنه، وقف بينهما يلقى نظرة على الرجل، الذى حاول الخروج من القبر، وهو ينظر إلى جثة المرأة فى رعب، مرددًا فى انهيار:

- ارحمينى... ارحمينى.

وبلا أية مشاعر تقريباً؟، وكأنما تضغط عليه قوة تفوق إرادته، تجاهل (برعى) تأوهات الرجل، ودفع بلاطة القبر؛ ليعيدها إلى موضعها، والرجل يصرخ فيه، فى رعب لا مثيل له:

- ماذا تفعل؟! ماذا تفعل؟!

ومتجاهلًا صرخاته تمامًا، أغلق (برعى) القبر، وراح يدعم بلاطته بخليط سميك من الأسمنت والماء؛ ليحكم إغلاقه تمامًا، وصوت الرجل يتناهى إلى مسامعه ضعيفًا، وهو يصرخ متوسلًا:

- أخرجنى من هنا... لا تتركنى معهم...أرجوك...

وفى هدوء عجيب، زاد (برعى) من كمية الأسمنت والرمال، حتى حجب صوت الرجل تمامًا، ثم تراجع فى بطء، وجلس على شاهد قبر آخر، يراقب قبر المرأة فى بلادة عجيبة، فى حين رفع الطفلان عيونهما إليه، فى نظرة امتنان عجيبة، سرت لها قشعريرة باردة أخرى فى جسده...

ثم فجأة، حدث ما جعل قلبه يتوقف لحظة عن النبض...

لقد شاهد تلك المرأة...

شاهدها تقف على بلاطة قبرها هادئة ساكنة، تنظر إليه بنفس



نظرة الامتنان، وهى تفتح ذراعيها...

وفى سعادة، اندفع الطفلان نحوها، فاحتضنتهما فى حنان عجيب، قبل أن تمنحه نظرة امتنان أخرى، ثم تغوص مع ولديها، عائدة إلى قبرها...

ولساعة كاملة، ظل (برعى) جالسًا على شاهد القبر الآخر، يحدّق فى قبر المرأة، دون أن ينبس ببنت شفة...

منذ تلك الليلة، واصل (برعى) جلسته المعتادة، أمام منزله، وسط المقابر، يدخّن شيشته فى هدوء وصمت، محاولًا إقناع عقله بنسيان ما حدث...

الشىء الوحيد الذى تغير، هو أنه لم يعد يروى شيئًا لأى مخلوق... فقط أصبح أكثر اهتمامًا بنسمات الربيع...

وزهور الربيع.

• • •

# شات...

" العشاء يا (عبير)..." ..

بلغ النداء مسامع (عبير)، وهى تجلس أمام شاشة الكمبيوتر، فانعقد حاجباها فى ضيق، ومطّت شفتيها فى امتعاض، وهى تواصل الكتابة على لوحة الأزرار؛ لتحكى لإحدى صديقات (الشات) ما حدث معها، خلال رحلة الصيف فى الساحل الشمالى...

وتكرَّر نداء الأم مرتين، دون أن تجيب (عبير)، فطرقت الأم باب حجرتها، وهى تقول فى يأس، يبدو أنها قد اعتادته:

- ألن تتناولى العشاء معنا؟!

هتفت (عبير)، دون أن تتوقف عن مواصلة (الشات):

- كلا... لقد تناولت شطيرة منذ قليل.

زفرت أمها، مغمغمة:

- أنت وشأنك.

لم تبال (عبير) كثيرًا بضيق أمها، التى يأست من محاولات انتزاعها من أمام الكمبيوتر، الذى أدمنت الجلوس أمامه، منذ تخرجت من كليتها، منذ أكثر من عام، لم تحاول خلاله البحث عن عمل، ولا مرة واحدة، وكأنها قد وهبت حياتها للكمبيوتر، ولذلك (الشات)، الذى صنعت منه حياتها الاجتماعية كلها...

أما (عبير) فقد انتهت من (الشات) مع زميلتها، ثم انتقلت إلى زميلة أخرى، فى شغف غير طبيعى، جعل الساعات تمضى، وأسرتها تنام، وهى مستمرة أمام الكمبيوتر...

وعندما قرَّرت أخيرًا، مع اقتراب الفجر، أن تاوى إلى فراشها، ظهر ذلك الزائر فجأة، على صفحة (الشات) الخاصة بها...



(ع.ج)... هكذا عرَّف نفسه، قبل أن يتحدث معها عن رحلتها الصيفية...

واتسعت عيناها فى دهشة بالغة مستنكرة...

إنها لم تعرف (ع.ج) هذا من قبل، ولم تجر أى (شات) معه مسبقًا، وعلى الرغم من هذا، فهو يذكر لها أمورًا، لم تخبرها حتى لأعز صديقات (الشات)...

وفى غضب، سألته (عبير) عمن يكون...

وفى بساطة، أخبرها أنه شخص شديد الإعجاب بها، ويرغب فى صداقتها...

وعلى الرغم من دهشتها واستنكارها، دفع الفضول (عبير) إلى أن تسأله: كيف عرف كل هذه الأمور عنها...

وفى سرعة مدهشة، تفوق قدرة أى انسان على الكتابة، ظهر الجواب على الشاشة...

" أنا أعرف عنك أكثر مما يمكنك تصوِّره..." ...

لم يرق لها الجواب، وفكرت لحظة فى إغلاق الكمبيوتر، ولكن الفضول دفعها إلى أن تسأل...

" مثل ماذا؟!" ..

وبنفس السرعة المدهشة، ظهر الجواب...

" أعرف أنك كنت تفكرين الآن فى (أشرف)، ذلك الشاب الوسيم، الذى التقيت به فى الساحل الشمالى، والذى يمتلك سيارة سوداء، من طراز (بى. أم. دابليو)..." ..

خفق قلبها فى عنف، وبدا لها الجواب مستفزًا، فهى بالفعل كانت

تفكّر فى (أشرف) هذا، ولا أحد سواها يعلم، أو يمكن أن يعلم بهذا!!!

ولكن هناك من يمكن أن يستنتجه...

إنه (أشرف) نفسه...

ربما هو يمازحها، واثقًا من أنها تفكّر فيه طوال الوقت، بعد أن بهرها بوسامته وشدة ثرائه، منذ أقل من شهر...

نعم... هو (أشرف) حتمًا؛ فهى لم تخبر أحدًا عنه، حتى هذه اللحظة...

إنه هو دون سواه...

وبسرعة، كتبت على الشاشة...

" أنت (أشرف)... أليس كذلك؟! " ...

وما أن رفعت سبَّابتها عن آخر حروف لوحة الأزرار، حتى ظهر الجواب على الشاشة...

"(أشرف) شاب تافه، لا يستحقك... " ..

أدهشتها سرعة ظهور الأجوبة، فتراجعت لحظة فى مقعدها، تحاول فهم ما يحدث...

مستحيل أن يكون هذا شخص آخر...

لا أحد يعلم بأمر (أشرف) سواها!!

ولكن من يمكن أن يكون هذا؟!

وكيف يضع إجابات أسئلتها بهذه السرعة؟!

انعقد حاجباها فى شدة، وهى تحاول البحث عن الجواب...

ربما هو (أشرف)، ولكنه يختبر مشاعرها نحوه...



ربما...

وربما أعد الإجابات كلها مسبقًا، مستنتجًا حيرتها، إزاء هذه المعلومات والاسئلة...

من المستحيل أن يكون قد روى الأمر لأحد أصدقائه، وتركه يعبث بها...

مستحيل تمامًا...

صحيح أنها لم تتعرَّفه جيدًا، ولكنه لم يبد لها من تلك النوعية أبدًا...

وفجأة، وبينما عقلها منشغل بالبحث عن إجابات تساؤلاتها، ظهرت عبارة على الشاشة...

" لا تشغلى عقلك بالتفكير، فأنا لست صديقًا لذلك التافه (أشرف)، الذى ينافسنى الإعجاب بك... " ..

وانتفض جسدها فى دهشة وانفعال...

كيف عرف ما تفكّر فيه؟!

كيف؟!

كيف؟!

وبسرعة، نقلت سؤالها إلى الشاشة...

" هل تقرأ أفكارى؟! " ..

وفى نفس اللحظة، أتاها الجواب...

" بالتأكيد... أقرأ كل ما تفكرين فيه... " ...

انعقد حاجباها فى شدة، وفكَّرت فى أنه شاب عابث حتمًا، يعلم أمر

علاقتها بـ(أشرف)، بوسيلة ما، ويستغل هذا لإخافتها والعبث بها...

وفى ذهنها، قرَّرت أن تفكَّر فى أمها، وتسأله أن يقرأ أفكارها...

وقبل أن تمد أصابعها، لكتابة العبارة، فوجئت بكلمة واحدة تظهر على الشاشة...

" فى امك... " ...

لم تكن قد كتبت العبارة بعد؛ لذا فقد جعلها الجواب تثب من مقعدها، وتتلفَّت حولها فى خوف، قبل أن تكتب...

" من انت بالضبط؟! أرجوك... " ...

مضت لحظات من السكون، وهى تنتظر الجواب فى لهفة، ولكنها لم تحصل عليه، طوال الدقائق الخمسة التالية، فكتبت فى سرعة.....

" أين ذهبت؟! " ...

أتاها الجواب على الشاشة،بأسرع مما تتوقع،

" لماذا؟! هل افتقدتنى؟! " ..

انتفض جسدها مرة أخرى، وتردَّدت لحظة، قبل ان تكتب فى حزم...

" سأغلق الكمبيوتر الآن... " ..

أتاها الجواب، قبل أن تتم العبارة....

" لن يمكنك هذا... " ...

شعرت بعصبية شديدة، وهى تقول لنفسها:

- من يظن نفسه؟! هل تصوَّر أننى لا أستطيع إغلاق الكمبيوتر؟! واهم هو، لو تصوَّر هذا.



وبكل العناد، دفعت سبَّابتها، وضغطت زر إغلاق الكمبيوتر، و...

ولم يستجب الجهاز...

تراجعت فى دهشة، وحدَّقت فى شاشة الكمبيوتر فى ذهول، مع العبارة التى ارتسمت عليها...

" الم أخبرك؟! " ..

انتابها خوف شديد، وهى تضغط زر إغلاق الكمبيوتر مرة...

وثانية...

وثالثة...

ورابعة...

وخامسة...

ولم يستجب الكمبيوتر لأية محاولة...

لقد ظلت شاشته مضاءة، وحملت عبارة صارمة...

" لن يمكنك إغلاق هذا الكمبيوتر، وقطع (الشات) بيننا، إلا بإرادتى أنا... " ...

انتفض جسدها، وهى تتساءل فى رعب...

أهذا فيروس جديد، من فيروسات الكمبيوتر؟!...

هل دس (ع.ج) هذا فى جهازها فيروسا جديدًا يمنع إغلاق الكمبيوتر؟! ولكن كيف فعلها؟! كيف؟!

حاولت أن تغلق صفحة (الشات)؛ لتعيد فحص جهاز الكمبيوتر، عبر برنامج مضاد للفيروسات، إلا ان الصفحة أيضا لم تستجب، فى حين حملت الشاشة عبارة جديدة...

" دعينى ألتقى بك أولاً، وبعدها سيستجيب لك الكمبيوتر... " ..

لم تحاول الرد على عبارته هذه المرة، وجسدها ينتفض فى قوة، وإنما تراجعت بمقعدها، وراحت تحدق فى العبارة فى ذهول، قبل أن تندفع فجأة، وتنتزع قابس الكهرباء، المتصل بالكمبيوتر...

ووفقًا لأى مقياس فيزيائى فى الوجود، كان المفترض أن يغلق هذا الكمبيوتر على الفور، إلا أن هذا- وللعجب- لم يحدث!!

مع غياب التيار الكهربى، ظلت شاشة الكمبيوتر مضاءة، وتراصت عليها عبارة جديدة...

" دعينى ألتقى بك أولاً... " ...

كان جسدها كله ينتفض رعبًا، وغمغمت بصوت مرتجف:

- ولكن هذا مستحيل!

لم يكن جهازها مزوّدا بميكروفون لنقل الصوت، وعلى الرغم من هذا، فقد جاءت العبارة التالية لتثير كل فزعها...

" مع مثلى، لا يوجد مستحيل! " ..

راح جسدها ينتفض فى قوة، وعجزت ساقاها عن حملها خارج مقعدها، وعجز حتى حلقها عن الصراخ، او الاستنجاد بأحد...

وعلى الشات، ظهرت العبارة نفسها تتكرّر...

" فقط دعينى ألتقى بك.... " ...

وبكل صعوبة، غمغمت:

- كيف؟!

أتاها الجواب على الشاشة، وكأن (ع.ج) هذا يسمعها...

" اطلبى منى أن ألتقى بك.... " ...



غمغمت فى رعب:

- متى؟!

ومرة أخرى اتاتها الجواب فى سرعة...

" الآن.... اطلبى منى الآن... " ...

كان الرعب يملأ كيانها كله، والدموع تنهمر من عينيها، من شدة رعبها، وعلى الرغم من هذا فقد غمغمت:

- فليكن... لو أن هذا ينهى ما أنا فيه.

حملت الشاشة كلمة واحدة بحروف كبيرة...

" اطلبيها... " ...

هتفت بصوت مختنق:

- التق بى... الآن..

لم تكد تنطقها، حتى انطفأت الشاشة فجأة، ودوت فرقعة مكتومة فى الحجرة، وهوى قلب (عبير) بين قدميها، عندما ظهر شخص إلى جوارها بغتة، وهو يقول:

- لم يكن من الممكن أن ألتقى بك، دون أن تطلبيها صراحة...

واتسعت عينا (عبير) عن آخرهما، فى رعب ما بعده رعب، مع ذلك الوجه شديد الحمرة، وعيناه المشقوقتين طوليًا كعيون الثعابين، وتراجعت بمقعدها فى عنف، فتهاوى بها، وارتطم رأسها بطرف فراشها، فسقطت فى عنف...

واستيقظت...

وفى رعب، حدّقت فى شاشة الكمبيوتر المضاءة أمامها، والتى تحمل صفحة الشات الخاصة بها، والتى ليس عليها أثر لمحادثاتها مع (ع.ج) هذا...

وفى ذعر، تلفَّتت حولها، قبل أن تطلق زفرة عصبية، وتغمغم:

- يا إلهى! لقد كان كابوسًا رهيبًا... لا ريب فى أن النوم قد غلبنى، أمام شاشة الكمبيوتر، فكان هذا الكابوس..

ضغطت زر إغلاق الكمبيوتر، فاستجاب لها فى يسر، ونهضت إلى فراشها، مع نسمات الصباح الأولى، وهى تتمتم:

- لابد وأن أقلل من ساعات جلوسى أمام (الشات)... أمى كانت على حق... هذا يصيب العقل بإجهاد شديد.

رقدت فى فراشها، وهى تستعيد ذكرى ذلك الكابوس الرهيب، وحاولت أن تبتسم، وهى تغلق عينيها، مغمغمة:

- ولكن لماذا (ع.ج).... أى شىء يمكن أن يعنيه هذا.

" يعنى عفريت من الجن... "...

العبارة جعلتها تقفز من فراشها بكل رعب الدنيا، ووجدته يقف أمامها، وذيله يتلاعب خلفه، وهو يبتسم بأنيابه الحادة، قائلًا:

- هكذا يطلقون علينا...

وصرخت (عبير)...

وصرخت...

وصرخت...

ولم يسمعها أحد...

على الإطلاق.

• • •



# الخـــوف...

المكان كله لا يوحى بالارتياح على الإطلاق...

الضوء شديد الخفوت...

الجدران شبه المتهالكة...

رائحة الرطوبة التى تزكم الأنوف...

أصوات الحشرات، التى دفعها الربيع للتغازل، فى موسمها السنوى...

وهو لم يشعر بالراحة، منذ جاء إلى المكان...

ولكن الجميع قالوا: إنه سيجد علاجه هنا...

وعليه أن ينتظر...

ويحتمل...

حاول أن يسترخى، على ذلك (الشيزلزنج) القديم، الذى اهترأت أطرافه، ولكنه لم ينجح فى هذا أبدًا...

ترى لماذا يثق الكل فى ذلك المعالج؟!

أية إنجازات يحملها تاريخه فى هذا المجال؟!

ولماذا هذا المكان؟!

لماذا؟!

شعر قلبه بذلك الخوف العجيب، عندما تناهت إلى مسامعه أصوات المارة فى الخارج، فانكمش فى مكانه، واتسعت عيناه عن آخرهما، ثم حاول أن يغلقهما؛ ليقنع نفسه بأنه فى مكان آخر...

ولكن أصوات المارة تزايدت...

وشعور الخوف داخله تصاعد...



وتصاعد...

وتصاعد...

وعلى الرغم منه، وعلى الرغم من أن هذا غير معتاد، وجد جسده يرتجف، على الرغم من محاولاته التماسك...

ثم شعر بوصول المعالج...

وفى سرعة فتح عينيه، يحدّق فيه بشدة...

كان شديد النحول، غائر العينين، شاحب الوجه، أشعث الشعر، يرتدى معطفًا كان يتمتَّع باللون الأبيض، منذ عشر سنوات على الاقل، وأسفله يبدو سروال من الجينز، ضاع لونه من فرط القذارة...

وبلا مبالاة، جلس المعالج على مسافة نصف متر منه، وأمسك ملفه، وراح يقرأ أوراقه فى سرعة، قبل أن يهز رأسه قائلا:

- لم أرَ حالة كهذه من قبل أبدًا!!

غمغم هو فى أسى، يمتزج بلمحة خجل:

- أعلم هذا.

هزَّ المعالج رأسه مرة أخرى، ومال نحوه يسأله:

- لماذا تخاف منهم؟!

أجابه فى أسى:

- لست أدرى...

سأله:

- هل تتصوَّر أنهم سيحاولون إيذاءك؟!

تساءل، وهو يزداد انكماشًا:

- ولم لا؟!

هزّ المعالج كتفيه هذه المرة، وهو يقول:

- لأنه ما من سبب لهذا.

غمغم:

- لديهم سبب بالتأكيد.

قال فى هدوء:

- ليس إن لم تمنحهم أنت إياه...

تنهّد فى توتر، وبدا له ذلك (الشيزلونج) القديم، وكأنه تحوّل إلى سرير من المسامير الحادة، يؤلم ظهره، وهو يقول:

- الخوف جزء من طبيعتهم أيضًا.

هزّ المعالج كتفيه، وقال:

- الخوف هو المحرّك الرئيسى لكل كائن فى الوجود... يخاف البرد والرياح، فيسعى للحصول على مسكن يأويه... يخاف الجوع، فيبحث عن طعام يأكله... يخاف المرض، فيسعى لملبس يقيه... حتى عندما يحصل على كل هذا، يخاف أن يخسره، فيواصل عمله للحفاظ عليه.

غمغم فى توتر:

- لست أقصد هذا النوع من الخوف.

قال المعالج فى هدوء:

- لعلك تقصد ذلك الخوف السلبى، الذى يعجز معه المرء عن العمل والكفاح، فيخسر كل شىء.



هزّ رأسه فى قوة، قائلًا:

- ولا هذا أيضًا.

تراجع المعالج فى مقعده فى ضجر، وهو يسأله:

- أى خوف تقصد إذن؟!

صمت لحظات، عاد خلالها ينظر إلى الجدران المتشققة، والسقف الذى يكاد يسقط على رأسه، والباب المتماسك بالكاد، قبل أن يقول فى خفوت:

- الخوف من المجهول.

مطّ المعالج شفتيه، وهزّ رأسه، قائلًا:

- هذا نوع من الخوف الطبيعى.

غمغم هو فى دهشة:

- حقًا؟! أيوجد خوف طبيعى؟!

أجابه فى سرعة:

- بالتأكيد.

ثم اعتدل فى مقعده، مضيفًا:

- كل مخلوق لديه مخاوف طبيعية، هى التى تحدّد مساره فى الحياة، وقدرته على تجاوز ما يواجهه من عقبات... والخوف من المجهول هو أكبر هذه المخاوف؛ لأنك تخشى مالا تدركه، بأكثر مما تخشى ما تدركه، والوسيلة الوحيدة لكسر الخوف من المجهول هى ألا يصبح مجهولًا.

سأله فى لهفة متوترة:

- وكيف؟!

مال المعالج نحوه، مجيبًا فى حزم:

- بأن نواجهه.

امتقع وجهه، وتراجع يرقد مرة أخرى، على ذلك (الشيزلونج) القديم، وهو يغمغم فى خوف:

- نواجهه؟!

أومأ المعالج برأسه إيجابًا مرتين، ثم اعتدل، قائلًا:

- هذا أشبه بحجرة مغلقة، فى منزل كبير... حجرة لم يفتحها أحد من قبل... والكل يخشى المبادرة بمحاولة فتحها، فتظل دومًا مغلقة، لا يقترب منها أحد، حتى يجرؤ شخص على فتحها يومًا، فيجد أنها حجرة خالية، لا خوف منها... بل قد تكون الحجرة الوحيدة، التى تدخل منها الشمس..

امتقع وجهه، وراحت أطرافه ترتجف، وهو يقول:

- هل تعنى أنه من الضرورى أن أواجههم؟!

عاد يومئ برأسه، قائلًا:

- هذا هو الحل الوحيد.

اتسعت عيناه، وهو يزداد انكماشا على ذلك (الشيزلونج) القديم، فاكتسب صوت المعالج صرامة، وهو يقول:

- اخرج الآن وواجههم... اثبت لنفسك أنك لا تخاف منهم، وربما خافوا هم منك.

حاول أن يتخيَّل الفكرة، ولكن الخوف فى أعماقه تصاعد؛ لمجرد تصوّرها...



تصاعد...

وتصاعد...

وتصاعد...

على الرغم من كل محاولاته لمقاومته، لم يستطع منع تصاعده، فدفن وجهه بين كفيه، وهو يهتف:

- لا... لن يمكننى هذا.

رمقه المعالج بنظره، تجمع ما بين الدهشة والشفقة والازدراء، قبل أن يقول:

- لا يوجد سبيل سوى هذا.

قالها فى صرامة شديدة، فأبعد هو كفيه عن وجهه، وحدَّق فيه، متسائلًا فى صوت مرتجف:

- وماذا عن العواقب؟!

هزَّ المعالج رأسه فى قوة، وهو يقول بنفس الصرامة:

- لا توجد أية عواقب.

تساءل بصوت أكثر ارتجافًا:

- وماذا لو فشلت؟!

أجابه المعالج، وهو يلملم أوراق التقرير، وكأنه قرر إنهاء جلسة العلاج:

- الخوف من الفشل دافع لتتقدَّم أى كائن، ولو أنك خشيت الفشل فستبذل جهدك لتفاديه، ولتحقيق النجاح.

ثم بدا وكأنه قد فقد أعصابه فجأة، وهو يضيف:

- ثم إنه لا خيار لديك... لابد وأن تحاول.

كان قد لملم أوراق الملف، ونهض وهو يحمله، فحاول هو النهوض بدوره، من ذلك (الشيزلونج)، وهو يغمغم:

- مازلت خائفًا منهم.

كان المعالج يهم بالانصراف، عندما سمع هذه العبارة، فالتفت إليه، يسأله فى صرامة:

- لماذا؟! ما الذى يمكن أن يفعلوه؟!

تردَّد، وهو يجيب:

- ربما طاردونى.

أجابه المعالج بكل ضجره:

- لن يفعلوا بالتاكيد.

قال فى توتر:

- وماذا لو حاولوا قتلى؟!

هتف المعالج:

- ألم أقل لك إننى لم أر حالة كهذه أبدًا؟!!!!

ثم مال نحوه، مضيفًا:

- لن يقتلوك حتمًا.

وانعقد حاجباه بشدة، وهو يضيف:

- لأنك بالفعل ميت... أنت شبح... ألم تستوعب هذه الحقيقة بعد؟! لا تخاف الأحياء.. هم من ينبغى أن يخافوا منك... حاول أن تستوعب... أنت شبح... شبح...



كان قد استوعب هذه الحقيقة بالفعل، ولكنه مازال يحتفظ فى أعماقه بتلك اللمحة الباقية من الحياة... بالخوف.

• • •

## أنت عمرى...

تلفَّت الدكتور (وجدى) حوله فى حذر؛ ليطمئن إلى خلو قسم الحالات الحرجة، فى المستشفى الخاص، الذى يعمل فيه، من أى شخص، يمكن أن ينتبه إليه، فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، وربَّت على جيب معطفه الطبى؛ ليتأكَّد من وجود اختراعه الصغير فيه، قبل أن يدفع باب حجرة تلك المريضة، الغارقة فى غيبوبة عميقة، منذ أكثر من ستة أشهر، ويدلف إلى المكان فى سرعة، ثم يغلقه خلفه فى إحكام، وهو يلقى نظرة متوترة على ساعة يده، التى أشارت عقاربها إلى الثالثة والنصف صباحًا تقريبًا...

كان يعلم جيدًا أن موعد مرور طاقم التمريض؛ لمتابعة المريضة، سيأتى فى الخامسة صباحًا، مما يعنى أنه أمامه ساعة ونصف الساعة؛ ليثبت نجاح اختراعه...

وفى توتر، أخرج جهازه الصغير من جيب معطفه، وحمله فى حرص، كما لو أنه وليد غير مكتمل النمو، ووضعه على المنضدة الصغيرة، إلى جوار المريضة مباشرة، ثم اعتدل يلهث، كما لو أنه قد بذل جهدًا خرافيًا، وغمغم فى عصبية:

- حتى مساء اليوم كنت مريضتى، أما الآن فأنت عمرى كله.

تطلَّع إلى مريضته بضع لحظات، وهو يبذل كل جهده؛ للسيطرة على انفعاله، ثم التقط نفسًا عميقًا، وقال وكأنه يتحدث إليها:

- الحادث الذى أصابك، أسقطك فى واحدة من أنواع الغيبوبة، غير ذات التفسير الواضح؛ فكل أجهزتك تعمل على نحو طبيعى، وعلى الرغم من هذا، فأنت غارقة فى غيبوبتك.

كشف ذراع المريضة، ودفع فى عروقها إبرة رفيعة، تتصل عبر أنبوب طويل بذلك الجهاز الصغير، وهو يواصل:



- ولقد بذلنا كل المحاولات الممكنة، ليس لعلاجك، ومحاولة إخراجك من غيبوبتك العميقة فحسب، ولكن لفهم وتفسير سببها أيضًا.

كشف ذراعه، ودفع فى أوردته إبرة مماثلة، تتصل عبر أنبوب شبيه، بذلك الجهاز الصغير، متابعًا:

- وفى النهاية، أقر الكل بعجزهم، وبأنه لا سبيل إلى تفسير حالتك، أو علاجها فى الوقت الحالى، وكل ما يمكننا هو الإبقاء عليك آمنة، وفى حالة طبية ممتازة، حتى نتوصل إلى التفسير أو العلاج.

نقل بصره بينها، وبين جهازه الصغير، الذى يحوى مفتاحًا واحدًا، مع مصباحين صغيرين على جانبيه، أحدهما له لون أحمر، والثانى أخضر اللون، مع مؤشر رقمى مستطيل أعلاهما...

كان يشعر بتوتر شديد، قبل أن يختبر جهازه للمرة الأولى، فقال، وكأنه يفرغ توتره، فى حديثه مع امرأة لا تسمعه:

- نظريتى تقول: إن ما تعانين منه أشبه بجهاز حيوى، نضبت بطاريته الأساسية، فبدا من الخارج سليمًا كما كان، ولكنه فى حاجة إلى الطاقة المحرِّكة الرئيسية.

ومال نحوها، مضيفًا فيما يشبه الهمس:

- الطاقة الحيوية.

قالها، وتراجع فى توتر، وعاد ينقل بصره بينها وبين جهازه الصغير، والتقط نفسًا عميقًا آخر، فى محاولة للسيطرة على أعصابه الثائرة، قبل أن يتابع:

- ولست أعنى بالطاقة الحيوية هنا، تلك الطاقة الطبيعية

للجسم البشرى، والتى يمكن قياسها بشتى الوسائل الحديثة، وإنما أعنى نوعًا آخر من الطاقة... تلك الطاقة التى تكمن فى الدم، وتنشأ عن سريانه فى العروق... الطاقة التى تمنحنا الحياة، والتى تصنع منا بشرًا، يفكر، ويشعر، ويكره ويحب.

التقط نفسًا عميقًا آخر، وتمتم:

- طاقة الدم الحيوية.

صمت لحظات، وكأنه ينتظر منها تعليقًا، ثم هزَّ رأسه، مغمغمًا:

- المسبار الذى غرسته فى عروقك وعروقى، لا يشبه إبرة محقن عادى، فهو ليس مجوَّفًا مثله، بل هو مسبار خاص؛ لقياس طاقة الدم الحيوية، ونقل ذبذباتها المنمنمة، إلى جهازى الصغير، الذى يقوم بفحصها، وتحليلها، وقياس قوتها، ثم يقارنها بذبذبات الطاقة الدموية الحيوية، الصادرة من عروقى، ويعمل على معادلة الطاقتين...

هزَّ رأسه، وكأنما يقنع نفسه بالفكرة، قبل أن يستطرد:

- هذا أشبه بمحاولة إيقاظ بطارية سيارة فارغة... إننا نوصلها ببطارية سيارة أخرى، فتدور، وتعود السيارة ذات البطارية الفارغة للعمل.

ألقى نظرة على ساعة يده، فوجد أن عقاربها تقترب من الرابعة صباحًا، وأدهشه أن مر كل هذا الوقت، دون أن ينتبه، فغمغم فى توتر:

- أظن أنه من الأفضل أن نبدأ التجربة.

تأكَّد مرة أخرى من كل التوصيلات، قبل أن تتجه سبَّابته فى تردُّد وتوتر إلى الزر الوحيد فى الجهاز الصغير...

وبمنتهى العصبية، ضغط الزر...



فى البداية، أضاء المصباح الأحمر، وبدأ الجهاز عمله...

ولكنه لم يشعر بشىء...

أى شىء...

لخمس دقائق كاملة، بدت له أشبه بدهر كامل، راح يحدِّق فى الجهاز، وفى المصباح الأحمر، والمؤشر الرقمى المستطيل، بالقرب من قمة الجهاز، والذى ظلَّ يشير إلى الصفر، وكأنما لم يستقبل شيئًا...

لا نبضات عادية، أو فوق عادية...

ولا ذبذبات ولا أى دليل على وجود تلك الطاقة الدموية الحيوية...

وفى توتر شديد، عقد الدكتور (وجدى) حاجبيه، وهو يغمغم:

- مستحيل! كل حساباتى تؤكِّد أن...

وقبل أن يتم عبارته، بدأ كل شىء فجأة...

بلا مقدمات، بدأت الأرقام تتحرَّك فى سرعة، على تلك الشاشة المستطيلة...

وشعر الدكتور (وجدى) بصدمة مباغتة...

لم تكن صدمة نفسية أو عصبية، وإنما صدمة حقيقية...

صدمة، شعر معها وكأن لكمة قوية قد أصابت رأسه، دون سابق إنذار...

وأمام عينيه، اللتين اتسعتا عن آخرهما، اختفت معالم الحجرة، وظهرت بدلًا منها معالم منزل قديم...

كان من الواضح أن ذكريات هذه المريضة، الغارقة فى غيبوبة عميقة، قد انتقلت إليه، بوسيلة ما...

كان المنزل قديمًا، يشبه بيوت القرن التاسع عشر، وهناك موقد كبير على الأرض، يمتلئ بفحم مشتعل، وتفوح منه رائحة بخور قوية...

وكانت هناك أصوات عجيبة تتردَّد...

أصوات بلغة ليست عربية حتمًا...

ولا هى حتى واحدة من اللغات الخمس، التى يجيدها...

كانت لغة غريبة...

عجيبة...

ومخيفة...

وكانت هناك يدان، تتحركان حركات عجيبة...

وبين الحين والآخر، تلقيان بعض البخور فى الموقد...

وعلى الرغم من حالة الجمود، التى أصابته عقب الصدمة، استطاع ان يستوعب الأمر فى سرعة...

إنه الآن داخل عقل المرأة...

يشعر بما شعرت به..

ويرى ما رأته...

ذلك الصوت الذى يسمعه، بتلك اللغة العجيبة، هو صوتها...

واليدان هما يديها...

إنه، وعبر وسيلة لم يقرأ حتى عنها من قبل، يرى عبر عينيها....

ويحيا ذاكرتها...

كان يريد أن يقاوم هذا الشعور المخيف، إلا انه عجز عن هذا تمامًا...



حاول حتى ان يمد يده؛ ليطفئ جهازه الصغير...

ولكن هيهات...

لقد تجمَّد كل جسده، وصار أشبه بمريض مصاب بشلل كامل، فيما عدا عقله، الذى ظل يعمل...

ويرى..

ويشعر...

كانت نيران الموقد تتأجج أكثر وأكثر، مع ترديد تلك الكلمات العجيبة...

ثم فجأة، راحت تلك الصورة تتكوَّن داخلها...

وعلى الرغم من حالة الجمود، التى سقط جسده فيها، شعر الدكتور (وجدى) برجفة عنيفة، تسرى فى أوصاله، وهو يرى ما رأته المرأة، داخل النيران...

كائن بشع رهيب، تكوَّن وسط النيران، وبدا كجزء من الجحيم، بقرنيه الصغيرين، وملامحه السوداء البشعة، وزوج الأعين، اللتين غابت منهما القزحية تمامًا، ويدين أشبه بقطعتين من الحجر الملتهب...

وراح الصوت يعلو، ويكتسب رنة رعب، ثم بدأت الكلمات تعود إلى العربية، مع صرخة المرأة:

- انصرف... انصرف...

ولكن ذلك الكائن البشع واصل التكوَّن، حتى صار هو والنار كيانًا واحدًا...

وفى مشهد رهيب، خرج من موقد النيران، وتجه نحوها...

وصرخت المرأة...

وصرخت...

وصرخت...

وصرخت...

وسمع الدكتور (وجدى) صدى صراخها فى رأسه...

وعبر ذاكرة عينيها، رأى ذلك الكائن يملأ بصرها كله...

وعبر أذنيها، سمعه يقول:

- أنت أردت هذا.

صرخت المرأة، بكل رعب الدنيا:

- انصرف... لن أفعل هذا مرة أخرى... انصرف... انصرف...

قال ذلك المخلوق البشع، وهو يمد نحوها يدين صغيرتين، فى كل منهما ثلاثة أصابع، تنتهى بمخالب حادة طويلة:

- لست تملكين الطاقة اللازمة لصرفى.

صرخت بكل رعب وفزع الدنيا، واقترب ذلك الشىء البشع منها أكثر وأكثر، وبدا ذيله الشبيه بذيل جدى يتلاعب خلفه، و...

وفجأة، توقف...

وخفق قلب الدكتور (وجدى)، فى رعب هائل، عندما ابتسم ذلك البشع ابتسامة شيطانية، برزت إثرها أنيابه الحادة الرفيعة الطويلة، وهو يقول:

- آه... هناك آخر.

ثم بدأت الصورة تتسع، ليملأ وجهه البشع بصر الدكتور (وجدى) كله، ويرن صوته المخيف فى أذنيه، وهو يتابع:



- أنت جلبت هذا لنفسك.

وحاول الدكتور (وجدى) أن يصرخ...

حاول أن يستنجد...

أن يفعل أى شىء...

ولكنه لم يستطع...

أما ذلك الكائن البشع، فقد غاص فى أعماقه، وراح يسيطر على كيانه، و...

" إنها معجزة"...

هتفت بها ممرضة الخامسة صباحًا، وهى تستدعى الطبيب المناوب، عبر الهاتف الداخلى للمستشفى، قبل أن تلتفت إلى المريضة، التى أفاقت من غيبوبتها العميقة، متابعة فى انفعال:

- لقد استعادت مريضة الحجرة (13) وعيها...لست أدرى كيف... لقد حضرت فى موعدى؛ لقياس وظائفها الحيوية، فوجدتها واعية، تشعر بالدهشة، وتتساءل أين هى... الدكتور (وجدى)؟!... هذا هو أغرب ما فى الامر.

وألقت نظرة على الدكتور (وجدى)، الذى بدا ذاهلًا، جامدًا، يحدّق امامه فى لا شىء، قبل أن تتابع، فى انفعال بلغ ذروته:

- كل وظائفه الحيوية تعمل جيدًا، ولكنه واقع فى غيبوبة عجيبة... غيبوبة ليس لها من تفسير.... أى تفسير.

• • •

# أهل الهوى...

لابد وأن أنتهى من كتابة هذه المذكرات بأقصى سرعة، قبل أن أعجز عن كتابتها تمامًا فيما بعد...

لابد وأن يعرف العالم كله الحقيقة...

هذا لو صدَّقنى أحد...

ولكن كيف يصدقوننى وأنا أروى مذكراتى من داخل هذا المكان؟

من المستشفى...

مستشفى الأمراض النفسية والعصبية...

أرأيتم؟ أنتم أنفسكم دخلتم فى زمرة غير المصدقين، أو على الأقل المتشككين، فور معرفتكم بالمكان..

ولكننى لست مريضًا...

صدقونى.. لست كذلك أبدًا...

كل ما فى الأمر هو أن ما أرويه يبدو أشبه بالجنون، ويدفع البعض إلى الإسراع بافتراض أننى مختل عقليًا، أو على الأقل نفسيًا...

ولكن حتى لا نضيع الوقت فى تفسيرات لا طائل منها، دعونى أقص عليكم الأمر منذ البداية...

منذ التقيت بمريضى (عزيز)...

آه... نسيت أن أخبركم أننى طبيب... وطبيب أمراض نفسية وعصبية بالتحديد... بل وصاحب نفس المستشفى، الذى يتم احتجازى فيه كمريض...

دعونا نبدأ من البداية، قبل أن يفوت الوقت.

منذ دخل (عزيز) عيادتى فى البداية، كدت أجزم بأنه مصاب



بمرض ذهانى شديد؛ إذ بدا شديد التوتر، زائغ البصر، أشعث الشعر، ثيابه غير مهندمة، ولحيته غير حليقة، حتى إننى لم أصدق ما أخبرتنى به زوجته، من أنه عالم بكتريولوجى معروف...

لم يكن عنيفًا على الإطلاق، بل بدا مستسلمًا، بائسًا، عاجزًا، حتى إننى، وبخلاف كل القواعد الطبية، تعاطفت معه فى شدة، وتعاملت معه برفق شديد، وأنا أسأله مشفقا عما يعانيه، ومازلت أذكر إجابته العجيبة، حتى يومنا هذا:

- ما أعانيه هو صورة مما سنعانيه جميعًا، فى غضون عام واحد من الآن...

سألته فى رفق:

- وما الذى سنعانيه جميعًا؟!

تطلَّع فى وجهى لحظات، بعينيه الزائغتين، قبل أن يقول فى يأس، وهو يشير بيده:

- سنعانى منهم... سيسيطرون على عقولنا جميعًا... على أدمغتنا... على إرادتنا... لن يسلم شخص واحد منهم، لأنهم مثل البكتريا.

سألته فى حيرة:

- مثلها فى ماذا؟!

زاغت عيناه أكثر، وهو يلوح بذراعيه فى الهواء، مجيبًا:

- إنهم ينتشرون فى الهواء.. لا تراهم أو تشعر بهم، ولكنك تستنشقهم وتتنفسهم، ومن رئتيك يغزون دمك، ويسيرون عبره إلى مخك، ويبدءون فى السيطرة عليه... فى البداية ستسمعهم يتحدثون

إليك، ثم سيلقون عليك أوامرهم، وفى خلال أسبوع واحد، ستصير عبداً لهم، وستنسى حتى من أنت.

ثم مال نحوى، حتى شعرت بالخوف، وهو يضيف:

- ولا يوجد سبيل لمقاومتهم... أى سبيل.

بدت لى كحالة هلوسة مثالية، ونموذج للفصام شبه الكامل، فغمغمت:

- وهل تطيع أوامرهم؟!

هزُ رأسه، قائلاً فى يأس:

- لن تملك سوى هذا.

تصوُرت أننى أمام حالة تستحق الدراسة بالفعل، فملت نحوه، أسأله فى اهتمام:

- هل يمكنك أن تروى لى القصة من البداية؟!

تراجع فى مقعده، وهو يواصل التحديق فى وجهى، قبل أن يدفن وجهه بين كفيه، وهو يغمغم، وكأنه يحدث شخصاً آخر فى الحجرة:

- سأخبره... من حقه أن يعرف... بل من حق العالم كله أن يعرف... نعم سأخبره.

وعندما رفع عينيه إلىَّ، كانتا محمرتين كالدم، وهو يقول فى توتر:

- البداية كانت فى عينة بكتيرية جديدة، حصل عليها طبيب سموم شاب، حار فى تحديد فصيلتها، فأرسلها إلى معملى لدراستها، وإبلاغه بالنتائج... ولقد بدأت الإجراءات الطبيعية، فوضعت جزءاً من العينة فى مزرعة خاصة؛ لتنمو فيها وتتكاثر؛ لدراسة سلوكها فى هذا الشان، ووضعت قطعة على شريحة مجهرية؛ لأفحصها عبر المجهر



الخاص بالمعمل.

دارت عينيه فى محجريهما، وهو يشير بيده، قائلاً بلهجة مضطربة:

- وهنا كانت المفاجأة.

شعرت باهتمام شديد؛ لمعرفة تلك المفاجأة، فعدت أميل نحوه، وهو يواصل بلا انفعال:

- كانت فصيلة حيوية، لم أرَ مثيلاً لها من قبل... شكلها الخارجى يشبه البكتريا بالفعل... والبكتريا العصوية لو شئت الدقة، أما سلوكها فلم يكن سلوك بكتيريا على الإطلاق، بل كان أشبه بسلوك مستعمرات النمل، أو خلايا النحل...

بدت علىَّ الحيرة، وأنا أسأله:

- وكيف هذا؟!

بدأت يداه تتحركان فى انفعال زائد، وهو يجيب:

- كلها كانت متشابهة فى مظهرها الخارجى، إلا أنها انقسمت إلى مجموعات، لكل منها وظيفة محدودة، والمزرعة البسيطة، التى زرعتها فيها، بدت بعد أسبوع واحد أشبه بمستعمرة منظمة، بها قائد يحتل مركزها، وجنود يحيطون به، ومجموعات تنتشر فى الأطراف... مستعمرة حقيقية.

أثار الأمر اهتمامى بالفعل، وخاصة مع تلك التفاصيل الفنية، فسألته فى لهفة:

- أما زالت تلك المزرعة، أو المستعمرة كما وصفتها، فى معملك؟!

هزَّ رأسه نفيًا فى أسى، وهو يجيب:

- كلا.. لقد نقلتها إلى وحدة الميكروسكوب الإلكترونى، فى جامعة (القاهرة)، وما إن فحصتها هناك، حتى تملكنى رعب حقيقى.

بدأ عرق عجيب يتصبَّب على وجهه، على الرغم من برودة الجو، وزاغت عيناه فى شدة، وهو يلوِّح بيديه فى عصبية، مكملاً بكل انفعاله:

- إنها ليست بكتريا، كما بدت تحت ميكروسكوب عادى، بل هى كائنات حية عاقلة، تختفى تحت زى خداعى، يشبه تركيب البكتيريا العصوية، كائنات ما إن أدركت أننى قد كشفت أمرها، حتى شنت هجومها على الفور.

تراجعت فى مقعدى، أتطلع إليه لحظات فى حيرة، محاولاً إعادة تشخيصى الأولى...

الرجل، على الرغم من مظهره وعصبيته، يبدو واعيًا تمامًا لما يقول...

وفى حياتى كلها، لم أرَ مريضًا يمكنه التحدث عن أمور علمية بهذا القدر من الدقة والمعرفة، على الرغم من أن روايته تشبه أفلام الخيال العلمى، منها إلى الحقيقة!!

وبكل فضولى، سألته:

- وكيف شنت ذلك الهجوم؟!

تضاعف انفعاله، وهو يجيب:

- كنت قد اتخذت كل الاحتياطات، للحفاظ على تلك المزرعة، وعلى الرغم من هذا، فقد رأيتها تزحف على المكتب، أمام عينىَّ، ثم سقطت أرضًا، وتحطمت تمامًا...



مال نحوى بغتة، وبدا أقرب إلى الانهيار، وهو يضيف:

- ومع تحطمها، انطلقوا ينفذون خطة الغزو.

غمغمت بكل دهشتى:

- غزو؟!

لوَّح بذراعيه مرة أخرى، صائحًا:

-لم أدرك هذا فى البداية... فقط أسرعت اجمع بقايا ذلك الطبق الزجاجى، الذى حوى المزرعة، وعندما فحصتها، لم أجد بها أى أثر لكائن واحد منها، وأدهشنى أن تختفى كلها فى لحظة واحدة... ولم أدرك بالطبع أنهم فى الهواء من حولى، وأننى أستنشقهم، وأطلقهم داخل جسدى، دون أن أدرى.

بدأت أشعر بقلق وخوف حقيقيين، فى حين نهض هو من مقعده بحركة حادة، وهو يواصل صياحه وانفعاله:

- قبل أسبوع واحد، بدأت أسمع أصواتهم داخلى، وأخبرونى كل شىء عنهم...أخبرونى أنهم جاءوا مع نيزك صغير، سقط على الأرض، فى غفلة من الزمن، وهالتهم فى البداية أحجامنا الهائلة، ثم سرعان ما ادركوا أن كل ما يحرِّك تلك الأجساد الضخمة، بالنسبة لهم، هو مخ صغير نسبيًا.

سألته، محاولاً كتمان قشعريرة سرت فى جسدى:

- وكيف أدركوا هذا؟!

أشار إلى رأسه، قائلاً:

- من مخى... من ذاكرتى...من جسدى كله.... لقد علمت منهم أننى البداية، وأنهم سينتشرون فى الهواء، عبر جهازى التنفسى؛

ليغوصوا فى كل جسد أرضى، ويسيطرون علينا تمامًا.

بدأ يصرخ بكلماته، على نحو مقلق، فضغطت الزر الموجود على سطح مكتبى، وسرعان ما ظهر ممرضو المستشفى، فقلت لهم، محاولًا السيطرة على انفعالاتى:

- الأستاذ (عزيز) يحتاج إلى راحة طويلة... سنستضيفه لدينا لبضعة أسابيع، حتى يسترد عافيته.

قاوم (عزيز) طاقم التمريض فى استماتة، وهو يصرخ:

- أنت أيضًا لا تصدقنى... لا أحد يصدقنى... هذا هو مكمن قوتهم... لا أحد يقتنع بوجودهم... سيسيطرون على الجميع... أنت التالى أيها الطبيب... أنت رسولهم التالى؛ للقضاء على إرادة البشر.

ظل يواصل صرخاته، وهم يحملونه عنوة إلى قسم الحالات العنيفة، وبكت زوجته فى مرارة؛ عندما أخبرتها أنه سيحتاج إلى علاج طويل؛ للخروج من حالة الهلوسة التى يعيش فيها...

فى البداية، اضطررنا لحقنه بعقاقير مهدئة قوية، حتى تمنع إصابته بأى انهيار عصبى عنيف، وعلى الرغم مما أصابته به من استكانة، كان يحدث نفسه طوال الوقت، باعتبار أنه يتحدث مع تلك الكائنات الميكروسكوبية، التى تعيش داخله.

ثم، وبعد يومين فحسب، صار شديد الهدوء، شارد البصر، يطيع الأوامر طاعة عمياء، دون جدل أو مناقشة...

ولكنه واصل الحديث مع نفسه...

أو معهم...

تصوَّرت عندئذ أننا قد نجحنا فى السيطرة على حالته، وبدأت أدوِّن



هذا فى ملفه، حتى كانت ليلة باردة، سهرت فيها لإنهاء بعض الملفات فى مكتبى، عندما بدأ الاتصال...

فجأة، سمعت صوتًا من داخلى يقول:

- فهمنا لتكوينكم يزدادا يومًا بعد يوم.

شعرت برعب هائل، وخيِّل إلىَّ أننى سأقضى نحبى رعبًا، فالصوت كان ينبعث من أعماقى بالفعل... من ثنايا مخى...

وبكل رعب الدنيا، صرخت:

- ماذا تريدون منى؟!

أتانى الصوت نفسه يقول:

- كل ما أردناه حصلنا عليه بالفعل... وكل ما عليك الآن، هو أن تنقلنا إلى كل من تعرف... عبر الهواء.

رحت أصرخ بكل قوتى:

- لا... هذا ليس حقيقيًا... إنها هلاوس سمعية... مجرد هلاوس سمعية.

قال ذلك الصوت بنفس الآلية:

- هذا ما سيقوله الآخرون... وهذا يضمن عدم كشف أمرنا... لقد أصبحت تحت سيطرتنا تقريبًا... انقلنا عبر الهواء... انقلنا إلى كل من تعرفه.

رحت أصرخ، وأصرخ، وأصرخ، حتى امتلأ مكتبى بكل أفراد النوبة الليلية، من أطباء وطاقم تمريض..

حاولت أن أشرح لهم الأمر، إلا أن نظرات الإشفاق فاضت من عيونهم، وأسرع بعضهم يحضر العقاقير الطبية المهدِّئة، و...

وأنا الآن أرقد فى جناح خاص، مجاور لجناح (عزيز)، وقد صرت مثله، زائغ العينين، أشعث الشعر، أتلقى علاجى فى انتظام، وأنا اعلم أنه فى أية لحظة الآن، ستكتمل سيطرتهم على عقلى، ولن أملك إلا طاعة أوامرهم.

ولكن هذه المذكرات ستكشف أمرهم، إذا ما قرأها شخص لديه بعض الخيال...

وعندئذ ستبدأ المقاومة...

مقاومة الغزاة...

لا... ليسوا غزاة... إنهم السادة... السادة الجدد...

كما تأمرون أيها السادة... سأمزّق هذه المذكرات فورًا، وسأنفذ أوامركم، وأنقلكم عبر الهواء، لكل من ألتقى به...

أنا عبدكم المطيع أيها السادة...

مرونى أنفذ...

فأنتم السادة الآن...

سادتى...

وسادة الأرض...

الجدد.

• • •



## الآخـــر...

لا يمكننى احتمال كل هذا...

لا يمكننى أبدًا...

ذلك القاتل الوحشى قيَّدنى فى إحكام، حتى لم أعد أستطيع تحريك طرف واحد فى جسدى كله...

ولا يمكننى حتى إبعاد رأسى...

أو إغلاق عينىَّ...

أنا مجبر على رؤية كل ما يرتكبه من أعمال وحشية دموية...

لست أدرى حتى كيف فاجأنا...

ولا كيف فعل بنا هذا...

كنت ورفاقى نبحث عن مكان متوار، يمكننا فيه أن ندخن بعض المخدرات، دون أن يلمحنا أحد...

ولقد عثرنا بالمصادفة على هذا المكان...

منزل قديم متهدم، تطل إحدى حجراته، التى فقدت جدارًا أساسيًا، على ساحة خالية، تمتد لمسافة كيلو متر تقريبًا...

ولقد بدا لنا المكان مثاليًا للغاية...

مكان بعيد...

خال...

مهجور...

لا يمكن أن يشعر بك أحد، أو حتى يسمعك أحد فيه...

وبالفعل، بدأنا فى إعداد مجلسنا، المطل على تلك الساحة الخالية، وأشعل بعضنا النار، فى حين بدأ البعض الآخر فى إعداد النرجيلة، و...



وفجأة، ظهر هو...

لم نكن قد بدأنا فى تدخين أية مخدرات، كما قد يتبادر إلى ذهنك فى البداية، ولم يكن أينا قد اقترب منها حتى...

كنا جميعًا فى أتم الصحة والعافية...

وعقولنا كلها يقظة...

تمامًا...

وعندما ظهر هو، كان شرسًا صارمًا، من اللحظة الأولى...

وكان يحمل مسدسًا...

فى البداية، تصوَّرنا أنه شخص يمازحنا، حتى إن بعضنا قد أطلق ضحكات مرحة، ودعابات لطيفة...

إلا أنه لم يكن مازحًا...

علمنا هذا، عندما أدار عينيه الشريرتين فى وجوهنا، بكل غضب الدنيا...

عندما توقفنا عن الضحك والدعابة...

وبدأ الخوف يتسلَّل إلى نفوسنا...

فماذا يريد منا؟!

ماذا؟!

كنا خمسة شباب أقوياء...

ولكنه كان يحمل مسدسًا...

وتصوَّرنا كلنا أن ما يستهدفه هو سرقتنا، والاستيلاء على ما نملك...

ولقد عرض عليه بعضنا هذا بالفعل...

وجاءت إجابته، لتفسّر لنا كل شيء...

جاءت عبر رصاصة من مسدسه، أصابت رأس أحدنا مباشرة...

ومع سقوط رفيقنا جثة هامدة، أدركنا الحقيقة...

إنه ليس سارقًا...

إنه قاتل...

رحنا نرتجف، ونبكى، ونتوسّل...

وما من مجيب...

كان قاسيًا، صارمًا، ساديًا، يستمتع برعبنا وعذابنا وتوسّلاتنا وألمنا...

وبكل وحشية الدنيا، أمرنا أن نقيّد بعضنا البعض...

ومع الرعب الذى ملأ نفوسنا، أطعناه...

كنا نعلم أن القيود ستعنى أننا قد صرنا فى قبضته تمامًا...

ولكننا لم نملك الاعتراض...

وكان هذا ما ينشده بالضبط...

القوة...

والشعور بالقوة...

وبكل مهابة الدنيا وخوفها ورعبها، رحت أحدّق فيه، بعد أن انتهيت من تقييد آخر رفاقى، عندما انتبهت إلى تلك النظرة الوحشية، التى يرمقنى بها...

لم أكن أدرى لحظتها، أن اختياره قد وقع علىّ؛ لأكون شاهدًا على



وحشيته وساديته، قبل أن يحين دورى...

ولست أدرى حتى كيف قيّدنى، ولكننى وجدت نفسى مكبلًا تمامًا، وغير قادر على تحريك إصبع واحد...

ولقد جذب جفنىَّ إلى أعلى وأسفل بوسيلة ما، فلم أعد قادرًا على إغلاق عينىَّ أيضًا...

كنت مضطرًا لمراقبته، وهو يرتكب جرائمه الوحشية...

وكان جسدى كله يرتجف...

ويرتجف...

ويرتجف...

وفى برود سادى عجيب، اتجه نحو أوّل رفاقى، وأخرج من جيبه سكينًا ذا نصل طويل حاد، راح يمرره على وجه رفيقى، الذى راح ينتحب فى رعب، والكمامة اللاصقة على فمه تمنعه من الاستنجاد...

ثم بدأت اللعبة السادية...

بطرف نصل السكينة الحاد، راح ذلك السفاح يمزق وجه رفيقى، بضربات سريعة سطحية...

رأيت الدم يغرق وجهه...

والرفيقان الآخران تتسع عيونهما فى رعب هائل...

ثم جاءت الطعنة الأخيرة...

بعد أن تمزّق وجه رفيقى الأول تمامًا، طعنه ذلك السفاح فى جانب عنقه، طعنة سريعة غادرة قوية...

وبعينىَّ المذعورتين، شاهدت النصل يغوص فى عنق رفيقى، من

الجانب الأيسر، ثم يبرز من الجانب الأيمن...

واتسعت عيناه فى ألم ورعب...

ثم سقط جثة هامدة...

وتدفقت الدماء من عنقه فى غزارة...

وفى هدوء، التفت السفاح إلى الثانى...

وفى بطء أيضًا، راح يمرِّر نصل خنجره...

ليس على وجهه هذه المرة، وإنما على صدره...

وعبر الكمامة اللاصقة، سمعت رفيقى يهمهم متوسلاً، ويحاول الصراخ، ولكن ذلك السفاح لم يبد ذرة واحدة من الاهتمام...

ولا من الرحمة...

لقد بدأ، وبكل هدوء، فى تمزيق صدر الثانى بنصل خنجره، ورفيقى يتلوى ألمًا وعذابًا...

ثم بدأ السفاح فى شق صدره...

كان يعمل فى هدوء مذهل، كما لو أنه يشق صدر لعبة من الفراء...

وأمام عينىَ الذاهلتين، رأيت قلب رفيقى الثانى...

رأيته يبرز، عبر ضلوعه المقطوعة وصدره الممزق...

رأيته ينبض..

وينبض..

وتساءلت فى حيرة، على الرغم مما ملأ جسدى من خوف ورعب:

كيف يمكن أن ينبض قلب، على هذا النحو المكشوف؟!

بل كيف يمكن أن يحيا؟!



وبكل رعب الدنيا، شاهدت السفاح يمد يده، ويمسك قلب صديقى داخل صدره، ثم ينتزعه فى قوة...

وانتفض جسد رفيقى الثانى، قبل أن يسقط جثة هامدة...

وأصيب الرفيق الثالث والأخير بحالة رعب، لم أرَ لها مثيلاً، وهو يحدِّق فى يد السفاح، التى أمسكت قلب رفيقه، وهو يتطلع إليه فى ازدراء، ثم ألقاه بكل قوته، نحو تلك الساحة الخالية، قبل أن يلتفت إلى ضحيته الثالثة...

كان الرعب قد بلغ من الثالث مبلغه، حتى إنه راح يطلق صرخات هيستيرية مذعورة مكتومة، من خلف كمامته اللاصقة، فجذبه السفاح من شعره، وراح يتطلع إلى رعبه فى استمتاع صامت، قبل أن يخالف أسلوبه السابق، ويضع نصل سكينه الطويل على عنقه، ويبدأ فى ذبحه، بكل هدوء وبرود...

وراح رفيقى الثالث ينتفض..

وينتفض...

وينتفض...

وتفجَّرت الدماء من عنقه فى قوة، وأغرقت ثيابه وثياب السفاح، الذى واصل عمله بنفس الهدوء والبرود، قبل أن ينهض واقفًا، وهو يحمل رأس رفيقى الثالث من شعره، وقد ظلت عيناه متسعتين من الرعب والألم...

رأيت جسد رفيقى الثالث يسقط بلا رأس، والسفاح يقف فى هدوء، ممسكًا بالرأس، الذى يقطر دمًا، قبل أن يرفعه إلى وجهه، وكأنما يريد أن يلقى عليه نظرة متشفية أخيرة، قبل أن يلقيه أيضًا بكل قوته، نحو تلك الساحة الخالية...

وبعدها التفت إلىَّ...

وبكل رعب الدنيا، راح جسدى يرتجف..

لقد حان دورى...

ولو أنه قتلهم بكل تلك الوحشية، فماذا سيفعل بى؟!

ماذا؟!

ماذا؟!

اقترب السفاح منى فى بطء، وانحنى يواجهنى مباشرة، والتقت عيناه بعينىَّ دون مواربة، وأصبحت أرى ملامحه فى وضوح...

رباه! إننى أعرف هذه الملامح جيدا...

أعرفها بكل تفاصيلها...

أعرفها حتمًا...

واقترب منى السفاح بوجهه...

واقترب...

واقترب...

و...

"ما كل هذه البشاعة؟!"..

سمعت العبارة فجأة، وتلاشى معها ظلام الليل، لأنتبه إلى أننى راقد على فراش نظيف، فى حجرة قليلة الأثاث، بها إضاءة جيِّدة، وعلى مسافة خطوات منى، يقف رجل فى معطف أبيض، يقول لآخر فى ثياب مدنية:

- حالات انفصام الشخصية، التى تبلغ هذا الحد، لا يمكننا أن



تتوقَّف عن تناول الدواء أبدًا.

سأله المدنى فى توتر:

- ما فائدة العلاج إذن؟!

أجابه صاحب المعطف الأبيض فى حزم:

- الحفاظ على المريض فى حالة توازن... فبدون العلاج، يمكن أن يصنع المريض لنفسه عالمًا وهميًا خياليًا، يحقق فيه ما يعجز عن تحقيقه، بشخصيته العادية، فى عالمه الفعلى...

ألقى ذو الثياب المدنية نظرة علىَّ، قبل أن يقول:

- أتعنى أن عجزه عن الانتقام من هؤلاء الأربعة، الذين أهانوه وسط حيه السكنى، هو الذى دفعه لتقمُّص شخصية السفاح الوهمى؟

أجابه صاحب المعطف الأبيض فى حماس:

- بالضبط... لقد تقمَّص فى خياله المريض، تلك الشخصية الدموية البشعة، التى استدرجتهم إلى منطقة مهجورة، وقتلتهم جميعهم بلا رحمة، كما سمعته يروى فى هذيانه.

أشار إلىَّ ذو الثياب المدنية، قائلًا:

- فى عالمه الوهمى؟!

كرَّر صاحب المعطف الأبيض:

- بالضبط.

التقط ذو الثياب المدنية نفسًا عميقًا، قبل أن يقول فى حزم:

- معذرة أيها الطبيب، ولكننى كرجل أمن، لم أستطع غض البصر، عن أربع جرائم بهذه الوحشية، رواها لى مختل عبر الهاتف،

مهما كانت تفسيراتك الطبية، خاصة وأنه، عندما وصلت سيارة النجدة، إلى حيث أشار فى اتصاله، كانت هناك دمى ممزَّقة فى كل مكان، وكان هو يقف هناك، ممسكًا رأس دمية من القطن، ويصر فى هستيريا واضحة، على أنها رأس آخر ضحاياه.

تساءلت فى حيرة:

عمن يتحدثون؟!...

السفاح هو من فعل هذا، وليس أنا!!

إنهم مصابون بمشكلة نفسية حتمًا...

لقد خلطوا بينى وبين الآخر...

لديهم انفصام فى الشخصية بالتأكيد!!

لست أنا من فعلها...

إنه هو...

ذلك السفاح...

الآخر.

• • •



# جميل جمال...

لا أحد يمكنه أبدًا أن يدرك أو يفهم، لماذا أطلقت (أم جميل) على ابنها هذا الاسم..

التفسير الوحيد، الذى توصلت إليه، بعد جهد جهيد، هو أنها اختارت اسمه، من قبل أن تراه، وانتقته له، وهو لايزال بعد جنينًا فى رحمها...

هذا لأن (جميل)، ابن الحاج (جمال)، عمدة قريتنا، قد عانى من تشوه جنينى فى رحم أمه؛ بسبب بعض الأدوية الخاطئة، التى تناولتها فى أشهر حملها الأولى، على الرغم من تحذير طبيب الوحدة الصحية لها بالابتعاد عن هذا، فولد (جميل) بملامح مشوَّهة، إلى حد مخيف... وجه متغضن، أشبه بوجه عجوز فى الثمانين، وأنف أفطس، يكاد لا يبرز من وجهه، وشفة أرنبية مشقوقة، وعينين ليستا على محور واحد، فاليمنى أعلى من اليسرى بثلاثة سنتيمترات على الأقل، وبروز زائد عند كتفه اليسرى، بالإضافة إلى ستة أصابع فى كل يد...

ومنذ طفولته، نفر منه كل سكان قريتنا، وصاروا يخشون رؤيته، ويتحاشون النظر إليه، وأطفالهم يتعاملون معه بعدائية واضحة، فيهتف بعضهم فى وجهه بأنه عفريت جاء من تحت الأرض، فى حين يتمادى آخرون، فيلقونه بالحجارة، عندما تقع أعينهم عليه...

ولأن هذا أصابه ببعض الجروح، أكبرها كان فى مشاعره البريئة، عندما لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره بعد، فقد رأت (أم جميل) أن تعفى ابنها من عذابه، فلم تعد تسمح له بالخروج من المنزل، أو حتى الوقوف أو الجلوس أمامه، وحشدت له كل وسائل التسلية المتاحة، فى حوش المنزل الكبير؛ حتى لا يضطر إلى الخروج...

وكبر (جميل)، وهو سجين فى منزله، وكثيرًا ما كنت ألمحه يختلس



النظر، من خلف النافذة فى حسرة إلى الأطفال الذين يمرحون ويلعبون فى الطرقات، وما إن ينتبه إلىَّ حتى يختفى فى سرعة، وكأنما يخشى أن أراه، أو يخشى أن تزعجنى رؤيته، فيظهر الامتعاض على وجهى، أو أؤذى مشاعره دون أن أدرى...

ولأن (جميل) لم يكن يستطيع الخروج من منزله، فلم يذهب إلى المدرسة، أو يتعلَّم حرفًا واحدًا طيلة سنوات عمره، التى تجاوزت العشرين ببضعة أشهر، وإن كنت قد لمحته ذات مرة يمسك كتابًا، أظنه كان يحاول فهم ما به، أو يطالع صوره على الأرجح...

ولأننى أقيم على مقربة من منزل (جميل)، فقد اعتدت رؤيته، واعتاد رؤيتى، ولم يعد يسارع بالاختباء، كلما وقع بصرى عليه، أو وقع بصره علىَّ...

وذات يوم، وعندما كان فى التاسعة من عمره، لمحته يتطلَّع إلىَّ فى اهتمام، فابتسمت، ولوَّحت له بيدى...

فى البداية لمحت ذعرًا يطل من عينيه، وكأنما لم يستطع تفسير حركة يدى، ثم لم يلبث أن لوَّح بيده فى تردّد، فابتسمت شفقًا، ولوَّحت له بيدى مرة أخرى، ثم واصلت طريقى، ونسيت الأمر كله...

ولكن من الواضح أن (جميل) لم ينسه..

ففى كل مرة، كنت أمر فيها أمام منزله، كان يلوِّح لى بيده، ويمنحنى بفمه المشوَّه ابتسامة، كانت- للأسف- تزيد ملامحه بشاعة، ولكننى كنت أجيبه كل مرة بابتسامة، مع تلويحة يد...

خيِّل إلىَّ بعدها أن (جميل) صار ينتظر قدومى كل يوم، حتى يحظى منى بتلويحه اليد، مع تلك الابتسامة المشفقة...

ثم سافرت بعدها للعمل فى واحدة من بلاد النفط، عندما كان (جميل) فى الخامسة عشرة من عمره، وقضيت هناك خمس سنوات، لأعود إلى القرية وهو فى العشرين، مازال حبيس حوش منزله، يكتفى بالتطلع عبر النافذة، عندما لا يكون هناك أحد...

وعندما لمحنى (جميل)، عند عودتى، تهلَّلت أساريره كلها، وراح يلوِّح بيديه فى لهفة، جعلتنى أرد تحيته، وأنا أسأله، ولأوَّل مرة عن أحواله...

ورأيت الدهشة تملأ ملامحه، ودون أن يجيب، منحنى ابتسامة كبيرة، جعلت ملامحه تبدو أشبه بملامح الوحوش، فى أفلام الرعب الأجنبية...

كنت قد تزوَّجت، قبيل سفرى للعمل، من فتاة من خارج القرية، وأنجبت منها ابنة جميلة، كنت أفخر بالسير فى طرقات القرية، وأنا أمسك يدها الصغيرة، وأعرفها بمسقط رأس والدها...

وكان (جميل) أحد أهم وأكبر مشكلاتى مع زوجتى الشابة، عندما عدت إلى القرية...

ففى أوَّل مرة لمحته، أطلقت صرخة ذعر، وعدت مبتعدة، وهى ترتجف وتبكى، وبذلت يومها جهدًا كبيرًا؛ لإقناعها بأن هذا (الوحش) كما وصفته، لا يغادر منزله أبدًا، وانه ليس هناك داع على الإطلاق للخوف منه، إلا أنها، وعلى الرغم من هذا، لم ترتح لسكننا إلى جوار (الوحش)، ورجتنى أن نجد طريقًا آخر، خلال غدونا ورواحنا، نتجنَّب المرور بمنزله...

وكان من الطبيعى أن أنفذ مطلبها، وأن أحرص على ألا نمر بمنزل (جميل) أبدًا، مهما كانت الأسباب...



تصوَّرت أيامها أنها ستكون آخر مرة أرى فيها (جميل)...

ولكننى كنت مخطئًا...

فذات مساء، كنت أتنزه مع ابنتى (هدى)، فى طرقات القرية كالمعتاد، عندما خطر ببالى أن أريها تلك الساقية القديمة، التى اعتدت الاستذكار عندها فى طفولتى، وأيام شبابى الأولى، فسرت ممسكًا يدها الصغيرة، وهى تتقافز خلفى فى خفة كعادتها، حتى بلغنا الساقية، و...

وهناك، كانت المفاجأة...

ففى ظل الساقية القديمة، الذى صنعه بدرًا فضيًا، مكتمل الاستدارة فى السماء، شاهدت (جميل)...

كنت أتصوَّر أنه لا يغادر منزله قط، ولكنه كان هناك، يجلس فى صمت وسكون، ويتأمل البدر فى شرود، وكأنما يبهره ضوءه الفضى الجميل الناعم...

وعندما شعر (جميل) بقدومنا، استدار إلينا...

وارتجف جسدى كله، على الرغم منى...

فتحت ضوء القمر، بدت ملامحه أكثر بشاعة من حقيقتها، حتى لقد بدا بالفعل مثل وحش أسطورى، ينتظر ضحيته القادمة، فى ظل الساقية القديمة...

ولوهلة، استعاد ذهنى كل ما قرأته من قصص الوحوش، وكل ما شهادته من أفلام الرعب الاجنبية، قديمها وحديثها...

استعاد ذهنى ذلك الرابط العجيب، الذى اشتركت فيه كل قصص الرعب تقريبًا، بين الوحوش بكافة أنواعها، واكتمال استدارة القمر فى السماء...

استعاد ذهنى كل هذا، فى لحظة واحدة، وأنا أحاول إبعاد نظر (هدى) الصغيرة عن ملامح (الوحش)...

وبكل فرحته لرؤيتنا، فوجئت بابنتى الصغيرة(هدى)تلوّح له بيدها، وتمنحه ابتسامة بريئة جميلة...

كانت ملامحه شديدة الوضوح لها، وعلى الرغم من هذا فهى لم تخف، ولم تشعر حتى بذرة واحدة من التوتر...

ألقيت عليه تحية سريعة، وأنا لا أستطيع كبح ذلك التوتر، الذى سرى فى جسدى كله، وجذبت ابنتى (هدى) فى عصبية، وأنا أسير معها بخطى سريعة، والمسكينة تتقافز خلفى، محاولة اللحاق بخطواتى الواسعة، مع ساقيها الصغيرتين الرقيقتين...

وعندما اقتربنا من المنزل، خفّفت من سرعتى قليلًا، وعندئذ سمعت (هدى) تقول فى براءة مدهشة:

- جميل هو عمو هذا يا أبى.

فجّرت عبارتها كل الدهشة فى أعماقى، إلى حد مذهل...

جميل هو؟! كيف رأت تلك الخلقة البشعة جميلة؟!

كيف؟

ألا يعرف الصغار الفارق بين القبح والجمال؟!

ألم تنضج معرفتهم بهذا بعد؟!

كان السؤال يواصل طرح نفسه فى أعماقى، عندما كانت زوجتى تعد طعام العشاء، وعلى الرغم من أننى حاولت عدم ذكر الأمر، أو الإشارة إليه، إلا أن (هدى) راحت ترويه فى حماس، جعل عينى زوجتى تتسعان عن آخرهما، بكل رعب الدنيا، ثم هاجت وماجت، وصرخت فى وجهى،



وأقسمت ألا تترك (هدى) وحدها معى فترة أخرى...

وحتى يمر الأمر فى سلام، التزمت الصمت تمامًا، مزمعًا ألا أناقشها، قبل أن تهدأ أعصابها، ويزول توترها، فى غضون يوم أو يومين...

وفى اليوم التالى، تشبّثت (هدى) بأمها، حال استعدادها للخروج إلى السوق، فلم تجد زوجتى مفرًا من أن تصحبها معها، خاصة وأنه كان يوم عطلة بالنسبة لى، وكنت أميل فيه للنوم، حتى وقت متأخر...

ولكن فجأة، شعرت بزوجتى توقظنى، وهى ترتجف من قمة رأسها، وحتى أخمص قدميها، وعندما فتحت عينىّ، هالنى وجهها الشاحب، وهالتنى عينيها الزائغتين، فقفزت من الفراش أسألها:

- ماذا حدث؟!

كان صوتها أكثر ارتجافًا من جسدها، وهى تقول:

- كنا فى طريقنا إلى السوق، عندما هاجمنا ثلاثة من الملثمين، أمسك أحدهم (هدى)، ووضع سكينًا كبيرة على عنقها، وهو يطلب منى أن أعطيه كل ما معى وإلا ذبحها أمام عينىّ.

اتسعت عيناى فى رعب، وأنا أصرخ:

- أين (هدى)؟! أين ابنتى؟!

برزت (هدى) من خلفها، وهى تقول فى براءة طفولية:

- أنا هنا يا أبى.

احتضنتها بكل لهفتى، وأنا أهتف مرتجفًا:

- حمدًا لله على سلامتك... حمدًا لله على سلامتك.

ثم أدرت عينىّ إلى زوجتى، مستطردًا فى انفعال:

- ليس من المهم أن يأخذوا أى شىء... المهم أن ابنتنا سالمة.

بدت أكثر ارتجافًا، وهى تقول:

- ولكنهم لم يأخذوا شيئًا.

امتزجت ارتجافتى بدهشتى، وانا أسألها:

- وكيف هذا؟!

مالت نحوى، وهى تجيب بنفس الانفعال:

- لأنه جاء.

سألتها بكل توترى:

- من؟!

بدت (هدى) الصغيرة شديدة الحماس، وهى تجيب، بدلًا من أمها:

- عمو الجميل...

حدقت فيها بكل دهشتى، ثم رفعت عينىّ إلى زوجتى، التى قالت، والانفعال لم يفارقها بعد:

- لست أدرى من أين جاء، ولكنه كان شديد الغضب، ولقد أمسك معصم صاحب السكين، وكسره بحركة واحدة، ثم التقط (هدى) قبل أن تسقط أرضًا، وصرخ فى وجوه الملثمين، فانطلقوا يعدون مبتعدين فى رعب، وهم يطلقون صرخات رهيبة، حتى ذلك الذى تحطم معصمه، كان يجرى وكأن أشباح الدنيا كلها تطارده...

حدقت ذاهلًا فى وجه زوجتى، وهى تضيف، ودموعها تنساب على خديها الجميلين:

- وبعدها أعطانى (هدى)، فى منتهى الرفق والدعة، وسمعت



(هدى) تشكره فى سعادة، ولدهشتى البالغة، طبعت قبلة بريئة رقيقة، على وجهه المشوه البشع... لحظتها تراجع فى دهشة، ووضع يده على موضع قبلتها، ثم انطلق يبتعد وسط الحقول..

ثم ألقت جسدها على الفراش، وهى تقول باكية:

- إننى لم أشعر بمثل هذا الرعب فى حياتى كلها.

قضيت ذلك اليوم كله، أحاول التسرية عن زوجتى وابنتى، أملًا أن أنسيهم تلك التجربة البشعة، حتى كانت الحادية عشرة مساء، عندما سمعت طرقات مترددة على باب المنزل، وعندما فتحت الباب، كانت دهشتى بالغة...

لقد كان (جميل)، يقف صامتًا، يتطلع إلىّ فى قلق، لم أتمالك نفسى معه وأنا أقول فى خشونة لم أتعمدها:

- ماذا تريد؟!

برزت زوجتى خلفى، وتطلعت إليه فى صمت مضطرب دون أن تنبس ببنت شفة، فى حين جاءت (هدى) تعدو، ثم هتفت فى سعادة، عندما رأته:

- عمو الجميل...

ادهشنى أن ألمح فى عينيه لمحة حانية، وهو يجذب يده من خلف ظهره، ويمدها بشىء فيها نحو زوجتى، فى تردد شديد...

فى تلك اللحظة، جمعت الدهشة البالغة بينى وبين زوجتى الشابة... فذلك الشىء الذى قدمه لها (جميل)، كان زهرة...

زهرة واحدة بسيطة، يمد يده بها نحوها فى تردد، وهو يتحاشى النظر إلينا جميعًا...

ولثوان، تجمَّد بنا المشهد كله، ثم لم تلبث زوجتى أن مدَّت يدها تلتقط الزهرة، وهى تغمغم:

- شكرًا.

استدار يبتعد عن الباب فى سرعة، وكأنما أنهى مهمة، تردَّد طويلًا فى القيام بها...

أستعيد تلك الذكريات كلها، بعد أن مرَّ شهر واحد على هذا الحدث الأخير، وبعد أن عدت إلى المنزل، وسألت زوجتى، وهى تنتهى من إعداد طعام الغداء:

- أين (هدى)؟!

فأجابتنى فى بساطة عجيبة:

- تلعب فى الخارج... اطمئن.... (جميل) معها.

لحظتها اتسعت عيناى فى دهشة...

وابتسمت...

ولحظتها فقط، فهمت لماذا رأت (هدى) الجمال، فى ملامحه المشوَّهة...

رأته؛ لأنها أطهر وأنقى منا جميعًا...

رأته؛ لأنها لم تنظر إلى وجهه...

بل إلى قلبه...

لم ترَ الجمال فى ملامحه المشوَّهة، ولكنها رأت الجمال فى نفسه الطيبة ومشاعره الرقيقة، وحبه للبراءة...

رأت كل هذا، مما لم نَرَه نحن الكبار، الذين أعمتنا الدنيا



بتعقيداتها...

رأته ببراءتها فى (جميل)...

(جميل جمال).

• • •

## بمنتهى الدقة...

بكل توترها، ألقت (ناهد) نظرة على ساعة يدها، قبل أن تتلفت حولها، وهى تقف عند ناصية ذلك الطريق، الذى بدا أهدأ من المعتاد، على الرغم من أن عقارب الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة مساءً بعد..

وفى قلق، شابه بعض الغضب، تساءلت: لماذا لم يحضر (أكرم) فى موعده؟!

ولماذا لا يحضر أبدًا فى موعده؟!

إنه يثير حنقها بأسلوبه هذا...

لقد التقت، خلال العامين الماضيين، بآخرين فى نفس عمره تقريبًا، ولكنهم كانوا أكثر التزامًا منه بكثير...

كلهم كانوا يحضرون فى موعدهم...

إلا هو...

الباقون كانوا يحضرون أحيانًا قبل موعدهم، وينتظرون حضورها، أما هو، فعلى الرغم من انبهاره الأوَّلى بها، عندما رآها أوَّل مرة، فى تلك (الكافتريا)، التى تعمل بها، إلا أنه لم يحضر مرة واحدة فى موعده...

أبدًا...

وهى تكره الانتظار...

تكرهه، كما لا تكره أى شىء آخر...

إنها، وطيلة عمرها، شديدة الدقة فى كل ما تفعله...

كل شىء فى حياتها يسير بنظام...

وبحسابات كثيرة...

وربما أكثر مما ينبغى...



فى بعض الأحيان تراودها فكرة أن سر تأخرها فى الزواج، وقد تجاوزت الثلاثين ببضع سنوات، هو أنها شديدة الدقة...

والرجال كما اعتادتهم، لا يميلون إلى هذا...

الرجال الذين تختارهم على الأقل...

وعملها فى (الكافتريا) يعرضها للكثير من المضايقات، ولكنها اعتادت هذا فى صبر وروية، طالما ستظفر أخيرًا بما تريد...

وهى تظفر دومًا بما تريد...

وهى مازالت تذكر كيف حاول (أكرم) مغازلتها فى البداية، وكيف أدهشه أسلوب صدها له، بمنتهى الحزم والأدب معًا...

ولقد حاول فى المرة الثانية استخدام أسلوب الإغراء، عندما ترك لها بقشيشًا محترمًا، وهو يمنحها ابتسامة ذات معنى، ولكنها شكرته بكل أدب، وانصرفت عن مائدته فى سرعة...

ومن هنا جاءت محاولته الثالثة...

لقد تحدَّث إليها بكل تهذيب، وأخبرها أنه وجد فيها الأنثى التى يبحث عنها، وعرض دعوتها إلى عشاء فى مطعم فاخر؛ ليتعارفا أكثر، باعتبار أنه يسعى لخطبتها، وليس للعبث بها..

ولقد رفضت دعوته على نحو شديد التهذيب...

ولكن دون صرامة هذه المرة...

وعبر زميلاتها، علمت أنه يقوم ببعض التحريات الداخلية عنها، وأنه علم أنها عزباء، لم تتزوَّج قط، وأنها يتيمة الأبوين، وتعيش وحدها فى بيت للمغتربات، على مقربة من (الكافتيريا)....

ولقد تكرَّر عرضه مرة ثانية...

وفى تلك المرة، كان أسلوبه يجمع ما بين الضراعة والتهذيب...

ومن عينيه، أطلت نظرة، كانت تنتظرها منذ البداية...

نظرة حب...

ومع تلك النظرة وحدها، قبلت دعوته...

وفى ذلك المطعم الفاخر، المطل على نيل (القاهرة)، بدا لها شديد الجدية، وهو يتحدث عن نفسه، ويطلب منها أن تتحدث عن نفسها...

وفى ذلك اليوم أيضًا، جاء متأخرًا...

هى وصلت إلى المطعم فى موعدها بالضبط كعادتها، وانتظرته نصف ساعة كاملة، قبل أن يصل، ويعتذر بأن هذا حدث بسبب الزحام...

وعلى الرغم من أنه قد أخبرها يومئذ الكثير عن حياته، لم تخبره هى إلا بما عرفه من زميلاتها فحسب...

وبينما يوصلها إلى بيت المغتربات، الذى تقيم فيه، طلبت منه أن ينزلها على مسافة بعيدة، حتى لا يراهما أحد، ثم طالبته بأن يخفى أمر لقاءاتهما، حتى ينحسم الموقف بينهما، فى حين طلب هو منها أن يلتقيا مرة أخرى؛ لمزيد من التعارف...

وفى حجرة نومها، أخرجت ذلك الدفتر الصغير، الذى لا يفارقها أبدًا، ودونت فيه اسمه، ورقم سيارته الفاخرة، التى تشف عن ثراء كبير...

ودونت أيضًا تاريخ موعدهما التالى...

وفى الموعد التالى، وصل أيضًا متأخرًا...

هى وصلت فى موعدها كالمعتاد، وهو تأخر عشرين دقيقة...

كالمعتاد أيضًا...



وفى الموعد الثانى، ذهبا معًا لمشاهدة فيلم سينمائى رومانسى جديد...

ولقد فعل، خلال مشاهدتهما للفيلم، ما توقعته تمامًا...

حاول ملامستها، وملاطفتها، و...

وأوقفته فى حزم، ولكن دون أن تحاول جرح مشاعره...

وكما توقعت تمامًا، ضايقه هذا كثيرًا...

ومع خروجهما من دار العرض، حاولت ملاطفته وإرضاءه، وأخبرته أنها تشعر بالتوتر، عندما يكونان فى مكان عام...

وبسرعة، عرض عليها أن يلتقيا فى هذه المنطقة الهادئة...

ولقد ترددت بعض الوقت، ثم وافقت، وهى تخفض عينيها فى خجل، ولكن صوته أنبأها بأن هذا قد أسعده كثيرًا...

فى ذلك اليوم أيضًا، دونت كل شىء فى دفترها الصغير، ووضعت تاريخ اللقاء الثالث، ثم أحاطته بدائرة كبيرة...

واليوم، يوم موعدهما الثالث، لم يستطع الوصول فى موعده كالمعتاد...

لقد وصلت فى موعدها، بنفس الدقة التى اعتادتها...

وهو تأخر...

وعلى الرغم من ضيقها وغضبها، فقد انتظرته؛ لأنها لا تستطيع تفويت هذا الموعد بالذات...

هذا لأنه، بالنسبة إليها، هو الموعد الحاسم...

كانت قد ارتدت ثيابًا أنيقة، ومعطف مطر من النوع المقاوم للماء،

وأضافت إلى يديها الصغيرتين قفازين من الجلد الطبيعى، أضفيا عليها مظهرًا أكثر رقيًا من حقيقتها المتواضعة...

وكانت تريده أن يرى كل هذا..

خطتها، التى وضعتها بمنتهى الدقة، كانت تستلزم أن يراها، فى أبهى حلة، وأكمل زينة...

هذا يجعل الامور أكثر يسرًا وسهولة...

دومًا...

مضت خمس وعشرون دقيقة على انتظارها، تعرَّضت خلالها لمضايقات بعض المارة وركاب السيارات، قبل أن تظهر سيارته...

كانت تشعر بغضب شديد، إلا أنها لم تعاتبه...

فقط دلفت إلى سيارته فى صمت، عندما أوقفها أمامها، وما أن أغلقت الباب خلفها، حتى غمغم مبتسمًا:

- معذرة، ولكن...

قاطعته فى هدوء حاسم:

- لا داع للاعتذار...

ابتسم أكثر، وهو ينطلق بسيارته، قائلًا:

- تبدين شديدة الأناقة الليلة.

غمغمت:

- لقد عرَّضنى هذا للكثير من المضايقات.

ضحك قائلًا:

- الناس معذورون... كيف يمكن أن يروا كل هذا الجمال، ثم



يمضون فى صمت.

عقدت حاجبيها، قائلة فى غضب:

- المفترض أن تغار.

هزَّ كتفيه، مجيبًا:

- إننى كذلك.

ثم التفت إليها مبتسمًا، ومستطردًا:

- ولكننى مازلت أعذرهم.

مطَّت شفتيها الجميلتين، دون أن تجيب، فأطلق ضحكة أخرى، قبل أن يسألها:

- إلى أين تحبين أن نمضى؟!

غمغمت، وهى تشيح بوجهها:

- إلى مكان هادئ.

سألها فى اهتمام:

- أية درجة من الهدوء؟!

حمل صوتها الكثير من توترها، وهى تجيب:

- مكان لا يرانا فيه أحد.

لمحت عينيه تتألقان، وقد خيِّل إليه أنه قد أدرك مغزى ما ترمى إليه، وبدا الحماس واضحًا فى صوته، وهو يقول:

- على مقربة من هنا، منطقة شديدة الهدوء، وليس بها سكان تقريبًا، ولن يرانا فيها أحد بالتأكيد.

انخفض صوتها، وهى تقول:

- ألن يكون هذا خطيرًا؟! سمعت أن بعض البلطجية يتربصون بالسيارت، التى تأتى إلى الأماكن المقفرة، و...

قاطعها بضحكة عالية، وهو يقول:

- اطمئنى... أنا أحمل مسدسًا.

أومأت برأسها، دون أن تجيب، ولاذت بالصمت، وهو يقطع الشوارع الساكنة، حتى بلغ منطقة مقفرة بالفعل، فأوقف سيارته بين بنايتين، وهو يقول، فى صوت تقاطرت منه اللهفة:

- هنا لن يرانا أحد بالتأكيد.

قالها، وهو يقترب منها، فغمغمت دون مقاومة:

- أتحمل مسدسًا بالفعل؟!

انتزع مسدسًا صغيرًا، إيطالى الصنع، من جراب تحت إبطه، ولوَّح به أمامها، قائلًا:

- ها هو ذا.

تطلَّعت إلى المسدس بلا انفعال، وهو يغمغم:

- أيمكن أن يحمينا؟!

هتف فى حماس:

- بالتأكيد.

هتف بها، وهو يعيد المسدس إلى جرابه، و...

وفجأة، اتسعت عيناه عن آخرهما...

ومن عينيه المتسعتين، تفجَّرت نظرة تجمع بين الألم والدهشة...

وعندما حاول الالتفاف إليها، وسحب مسدسه مرة أخرى من



جرابه، انتزعت هى ذلك الخنجر الصغير الرفيع، الذى غرزته فى عنقه، أثناء انشغاله بإعادة المسدس إلى جرابه، ثم طعنته به مرة أخرى، فوق عظمة القص تمامًا.....

وبلا أية مشاعر، شاهدت نصل الخنجر كله يغوص فى عنقه، مع نظرة الذهول فى عينيه، وأمسكت معصمه بيسراها فى قوة؛ لتمنعه من إخراج مسدسه...

قاوم بضع لحظات، ولكنها عاودت طعنة مرة ثانية...

وثالثة...

ورابعة...

حتى توقفت مقاومته تمامًا، وعيناه مازالتا مفتوحتين عن آخرهما، وتحملان نفس نظرة الألم الذاهلة...

وفى هدوء شديد، وعندما اطمأنت إلى أنه قد لقى حتفه، انتزعت الخنجر الصغير من عنقه، ومسحته بمنديل ورقى فى هدوء، وهى تخرج بعض المناديل المعطَّرة من حقيبة يدها الجلدية، وتستخدم مرآة السيارة الداخلية؛ لتمسح الدماء عن وجهها، فى دقة شديدة...

كان من الضرورة أن يبدو الأمر كحادث سطو كالمعتاد؛ لذا فقد أخذت حافظة نقوده، ومسدسه، وأفرغت الحافظة من النقود، التى زادت عن ألفى جنيه، ووضعت النقود فى حقيبة يدها الصغيرة، ثم ألقت الحافظة والمسدس فى كيس من البلاستيك الأسود، أخرجته من جيب معطفها...

وعندما غادرت السيارة، خلعت معطف المطر الملوَّث بالدم، والقفازين الجلديين، وألقت كل هذا فى الكيس الأسود نفسه، وهى تراجع خطتها الدقيقة...

ستستقل واحدة من سيارت الأجرة، على بعد خمس أو ست شوارع من المكان، وستذهب إلى منطقة بعيدة تمامًا، حيث تلقى الكيس الأسود فى الماء، وثقل المسدس سيضمن غوصه فى الأعماق، ثم تعود بعدها إلى حيث تقيم، وبراءة الأطفال فى عينيها...

وفى الغد، ستخبر زميلاتها أنه شخص حقير، حاول التحرش بها، فتركته وحده وانصرفت، وسيبرر لهن هذا عدم حضوره مرة ثانية...

والنقود لن تنفقها مرة واحدة... ستحتفظ بها لشهر أو شهرين، حتى يتم قيد الحالة بأنها سطو مسلح، أسفر عن مصرع الضحية...

وفى هدوء، وبينما تسير حاملة ذلك الكيس الأسود، تذكَّرت ضرورة أن تضيف اسمه إلى قائمة ضحاياها، فى ذلك الدفتر الصغير...

فكل شىء ينبغى أن يسير فى دقة...

فى منتهى الدقة.

• • •



# ليلة مثالية...

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة مساءً، عندما ارتفع رنين هاتفى المحمول، وأعلنت شاشته أن صديقى الغامض (نسيم) هو المتصل، فضغطت زر الاتصال، قائلًا، فى شيء من المرح:

- (نسيم)... كيف حالك؟! هل عدت إلى الظهور مرة أخرى؟!

فاجأنى صوته شديد التوتر، وهو يقول:

- (مراد)... أريد أن أراك الآن.

سألته فى دهشة:

- ولماذا الآن؟!

أجابنى بكل توتره:

- أرجوك... لا تلق الكثير من الأسئلة... إننى أحتاج إلى رؤيتك فورًا.

حاولت هضم الموقف كله، وأنا أغمغم:

- فليكن... أأنت فى منزلك؟!

أجابنى فى لهفة غير طبيعية:

- بل فى القبو.

لم أكن قد سمعته يتحدث عن ذلك القبو من قبل؛ لذا فقد سألته فى حذر:

- أى قبو؟!

أجاب فى سرعة ولهفة:

- قبو منزل أسرتى القديم فى (الفيوم)... سأعطيك العنوان.

لم تكن الدهشة قد فارقتنى بعد، عندما ركبت سيارتى؛ لأنطلق بها



إلى (الفيوم)؛ تلبية لنداء صديق...

والواقع أن (نسيم) لم يكن صديقًا حميمًا كما قد تتصوَّرون، بل هو صديق تعرَّفته فى حفل عام، أقامته شركته الأدوية التى يعمل بها، منذ ما يقرب من عامين، ولقد بدا شديد الطيبة والمودة، على الرغم من وجهه الشاحب، وعينيه الغائرتين، وأسنانه الصفراء، التى توحى بإهماله التام للمظاهر والنظافة الشخصية...

يومها حدَّثنى كثيرًا عن الأبحاث التى يجريها، على عدد كبير من مرضى الدم، ومحاولاته لإيجاد بديل صناعى للدم البشرى، يمكنه تعويض حالات النقص الدائم فيه، ويستطيع- فى الوقت ذاته- مد خلايا الجسد بما تحتاج إليه من الأكسجين والغذاء...

ولقد عارضته أيامها كثيرًا، باعتبار أن الدم البشرى سائل حيوى، يستحيل إيجاد بديل معملى له، إلا أنه بدا شديد الاقتناع والحماس لأبحاثه، إلى حد منعنى من إحباطه بآرائى المخالفة....

بعدها اختفى (نسيم) لأكثر من ثلاثة أشهر، قبل أن يعاود الاتصال بى مرة أخرى؛ ليخبرنى فى حماس أن أبحاثه تتطوَّر بشكل كبير، وطلب لقائى للحديث عنها...

وذات ليلة، اكتمل فيها القمر، وتوسط كبد السماء، التقينا، وتحدَّثنا كثيرًا وطويلًا، وراح يشرح لى أبحاثه ونتائجها، وأنا أستمع إليه فى اهتمام صامت...

كان أكثر نحولًا وشحوبًا، وكأنه لم يتناول طعامًا كافيًا، خلال الأشهر الثلاثة، إلا أنه أيضًا كان أكثر حماسًا وحرارة...

التقينا بعدها خمس مرات، على فترات متباعدة، وفى كل مرة كان يزداد نحولًا وشحوبًا، ويتطلَّع إلىَّ بنظرات عجيبة متوترة، حتى خشيت

أن تكون أبحاثه قد أرهقت عقله، مع قلة ما يتناوله من طعام، فلم يعد يستطيع التفكير على نحو سليم...

أما اتصال الليلة، فقد جاء بعد ستة أشهر من الانقطاع التام، وعلى ذلك النحو العجيب الذى ذكرته...

وعلى الرغم من هذا، فها أننذا على مشارف مدينة (الفيوم)، حيث أرادنى أن أكون...

لم يكن التوصل إلى عنوان منزل والديه عسيرًا؛ فهو منزل قديم، تحيط به الحقول من كل جانب، وطرازه يوحى بأن بناءه يعود إلى أكثر من قرن من الزمان...

وعند باب المنزل، استقبلنى (نسيم) فى توتر شديد، وحاول أن يبتسم ابتسامة مضطربة، وهو يقول:

- كنت أعلم أنك ستأتى.

قلت، وأنا أصافحه فى حذر:

- لا يمكننى أن أتأخَّر على نداء صديق.

كان قد وصل إلى درجة مخيفة من الشحوب والنحول، وصارت نظراته أشبه بنظرات المجانين، وخاصة عندما ألقى نظرة عصبية، على القمر المكتمل فى السماء، وهو يغمغم:

- أعتقد أنها ليلة مناسبة تمامًا.

لم أدر ما الذى كان يعنيه بكلمة (ليلة مناسبة) هذه، إلا أننى انتبهت إلى أن كل لقاء لنا كان يتم مع اكتمال القمر، مما جعلنى أتساءل: أمصادفة هذه؟ أم أن (نسيم) يعشق الليل والقمر على نحو ما؟!

لم يمنعنى هذا من اللحاق به إلى قبو المنزل، والذى أدهشنى أن



يحوى ما يشبه معملاً كيماويًا كاملاً، على ذلك الطراز القديم، الذى تراه فى أفلام الرعب، فسألته فى دهشة:

- ماذا تفعل هنا؟!

أجابنى فى سرعة واقتضاب:

- أجرى أبحاثى.

غمغمت وأنا أدير عينىَّ فى المكان فى حيرة:

- هناك أجهزة حديثة أكثر دقة.

غمغم وهو يتجه نحو قارورة كبيرة، تحوى سائلاً شفافًا، له لون أحمر باهت:

- هذا يكفى.

صب بعض ذلك السائل الأحمر الشفاف فى وعاء صغير، وهو يسألنى، دون أن يلتفت إلىَّ:

- ماذا تعرف عن مصاصى الدماء؟!

صدمنى السؤال العجيب، فحدَّقت فيه لحظات، وأنا أغمغم:

- ما يعرفه كل متابع لأفلام الرعب الإنجليزية والأمريكية.... إنها كائنات ليلية، شبه أموات، لهم أنياب بارزة، و...

قاطعنى وهو يرج الوعاء الصغير فى رفق، ثم يضيف إليه سائلاً آخر، له لون أزرق باهت:

- هراء.. كل هذا من خيال (برام ستوكر)، أوَّل من ألَّف رواية عن مصاص الدماء، الذى اقتبس اسمه من الكونت (دراكيولا)، حاكم (تراسلفانيا) القديم.

غمغمت فى حذر:

- هذا ما يعرفه الكل عن مصاصى الدماء الخرافيين.

وهنا التفت إلىَّ، وبدت عيناه زائغتين أكثر، وهو يقول:

- هنا تكمن المشكلة.

ثم مال نحوى، وبدا صوته مخيفًا، وهو يضيف:

- ليسوا خرافيين.

تراجعت فى دهشة، مغمغمًا:

- ماذا؟!

اعتدل، والتقط محقنًا، سحب بوساطته بعض الخليط الذى صنعه، وهو يقول فى توتر:

- لم أكن أتوقع أن توصلنى أبحاثى إلى هذا، ولكنهم كائنات حقيقية، تعيش بيننا، وتتغذى على دماء الضحايا، التى يقع اختيارها عليها.

وتألقت عيناه، وهو يضيف فى لهجة، بدت أشبه بالجنون:

- ولكن ليس بوساطة أنياب حادة، ومخالب، وكل تلك الخرافات، التى روَّجت لها الروايات وأفلام السينما... إنهم يتعاملون بوسائل بشرية طبيعية... وسائل هى السر فى أن أحدًا لم يكشف أمرهم، طوال قرون من الزمان.

لذت بالصمت بضع لحظات، وأنا أتطلَّع إليه، قبل أن أسأله فى حذر:

- كيف يحصلون على دماء ضحاياهم إذن؟!



لوَّح بيده الحرة فى الهواء، وهو يمسك المحقن بيده الأخرى فى حرص، هاتفًا:

- تمامًا كما يحصل أى بشرى عادى على الدماء.

ثم مال نحوى بحركة حادة، مستطردًا:

- هل سبق لك أن تبرَّعت بالدم؟!

تراجعت مبتعدًا عنه، وراودنى شعورًا بأننى قد أخطأت بالمجىء إليه، وأنا أغمغم:

- ليس كثيرًا.

اعتدل بنفس الحركة الحادة، وهو يقول:

- إنهم يغرسون إبرة سميكة فى عروقك، ويسحبون كمية من الدم، عبر أنبوب شفاف، إلى وعاء يحوى مادة مانعة للتجلط... أليس كذلك؟!

غمغمت فى حذر أكبر:

- بلى.

هتف فى انفعال:

- هذا ما يفعله مصاصو الدماء بالضبط... فى جيب كل منهم، ستجد كيسًا فارغًا، يحوى تلك المادة المانعة للتجلُّط، وعندما يقع اختيارهم على الضحية المناسبة، يغرسون الإبرة السميكة فى عروقها... وبالتحديد فى وريدها العنقى، ويسحبون الدم من جسدها.

اتسعت عيناى لحظات، قبل أن أقول فى عصبية:

- هذا أمر لا يمكن حدوثه... لا أحد سيستسلم لشخص يغرس إبرة غليظة فى وريده العنقى... سيقاوم حتمًا.

رفع ذلك المحقن إلى جوار وجهه، مجيبًا وعيناه تزدادان جنونًا:

- يقومون بتخدير الضحية أوّلًا.

تراجعت أكثر، محدقًا في ذلك المحقن، وأنا أسأله في عصبية:

- (نسيم)... لماذا طلبت مني الحضور إلى هنا؟!

ابتسم ابتسامة، أضفت على مظهره شكلًا مخيفًا، وهو يقول:

- ألا توافق معي على أنها ليلة مناسبة؟!

قلت في عصبية اكثر:

- (نسيم)...إنك تحتاج إلى علاج طبي.

هزّ كتفيه في لامبالاة، وهويقول:

- كل ما أحتاج إليه هو الراحة... لم أحصل على الراحة منذ فترة طويلة... طويلة للغاية.

حاولت الابتعاد أكثر، إلا أن أدوات معمله البدائي تصدّت لمحاولتي، فقلت بكل عصبيتي:

- (نسيم)... لا تجبرني على فعل أمر لا أريده.

ابتسامته هذه المرة كشفت أسنانه الصفراء القبيحة، وهو يقول:

- أحقًا لا تريده؟!

ثم رفع يده الحرة إلى أعلى، وهو يقترب مني بمحقنه، متابعًا في نشوة عجيبة:

- ألم تنتبه إلى انها ليلة مثالية... القمر بدرًا، والسماء خالية من السحب، ونحن نقترب من منتصف الليل.

حدّقت في ذلك المحقن الذي يحمله في تحفّز، وأنا أفكر في أنه



يدفعني بالفعل إلى أمر لا أريده، ولكنه واصل، مع اقترابه مني أكثر:

- وهذا المنزل مثالي... إنه وسط حقول كبيرة، ويبعد مسافة كافية عن أقرب جار، ونحن في قبو مغلق، و...

قبل أن يتم عبارته، انقض عليّ فجأة بمحقنه، الذي يحوي ذلك الخليط، الذي أجهل ماهيته، و...

وبسرعة لم يتوقعها، ملت بجسدي جانبًا، وأمسكت معصم يده، التي تحمل ذلك المحقن، ولويته في قوة، وشاهدت محقنه يسقط أرضًا، فلويت ذراعه خلف ظهره، وأنا أقول في قسوة:

- معلوماتك عن مصاصي الدماء ناقصة يا هذا.

كان يقاوم في استماتة، ولكن جسده النحيل الضعيف لم يسمح له بهذا، فأضفت، وأنا أدس يدي في جيبي:

- إنهم يتمتعون بقوة تفوق قوة البشر، وبسرعة استجابة غير طبيعية.

أخرجت من جيبي ذلك الكيس، الذي يحوي المادة المضادة للتخثّر، والذي يمتد منه أنبوب قصير، ينتهي بإبرة غليظة، متابعًا:

- ونحن نفضل في المعتاد تخدير الضحية أوّلًا، ولكنك أجبرتني على فعل ما لا أريده.

غرست الإبرة الغليظة في عنقه، وهو يصرخ:

- لقد كشفت أمرك منذ زمن، وأبحاثي نشرتها على شبكة الإنترنت، قبل وصولك إلى هنا... العالم كله سيكشف أمركم... العالم كله سيعرف بوجودكم.

أجبته في سخرية قاسية، وأنا أشاهد في شراهة دماءه الطازجة،

تسيل عبر الأنبوب القصير، إلى كيس الدم:

- ومن سيصدقك؟!

لم أكن قد تناولت وجبة دم طازجة، منذ زمن طويل، ولكن (نسيم) لم يكن من طراز الضحايا الذى أفضله، فهو شاحب نحيل، يحوى جسده دماء ضعيفة قليلة....

ولكننى كنت مضطرًا...

فلقد كان على حق تمامًا...

إنها ليلة مثالية...

للغاية.

• • •



# شباب إلى الأبد...

للوهلة الأولى، بدا لمحرر صفحة الحوادث، فى تلك الصحيفة اليومية الشهيرة، (ماجد مجدى)، أنه أمام سبق صحفى كبير، يمكن أن يقفز باسمه إلى الذروة، عندما اتصلت على هاتفه الخاص، وليس هاتف الجريدة، زوجة العالم الشهير (سالم وهيب)، الذى احتلت أخبار اختفائه الغامض مكان الصدارة، فى كل الصحف تقريبًا، خلال الأسبوع الماضى...

كانت الشرطة تكثف جهودها؛ للبحث عن (سالم وهيب)، الذى أعلن منذ ثلاثة أسابيع فحسب، أنه إزاء كشف جديد، سيقلب كل موازين العلم رأسًا على عقب...

ولقد بذل كل إعلامى فى (مصر) جهدًا كبيرًا، لمعرفة هذا الكشف الخطير، إلا أن مقابلة الدكتور (سالم) بدت مستحيلة تمامًا، إذ إن زوجته (نوال)، سيدة المجتمع الشهيرة، لم تسمح لهم بهذا قط، وأخبرتهم بكل الحزم، أن العالم الكبير يرفض الإدلاء بأى تصريح خاص، قبل أن يعلن كشفه الخطير للعالم أجمع...

ثم وفجأة، وبلا مقدمات، أخبرت السيدة (نوال) الشرطة عن الاختفاء المفاجئ لزوجها، دون أن يترك خلفه أدنى أثر...

فى البداية، تصوَّر بعض رجال الشرطة أن الزوجة قد قتلت زوجها، منذ أن رفضت السماح لأى شخص برؤيته أو مقابلته، أو حتى سماع صوته، عبر أسلاك الهاتف، إلا أن كل التحريات أثبتت أن (سالم) وزوجته عاشقان منذ زمن طويل، وأن السيدة (نوال) مازالت مبهورة بزوجها، على الرغم من تجاوز كلاهما منتصف الأربعينيات، وأنه من المستحيل أن تقدم على أى شىء، يمكن أن يؤذيه...

بالإضافة إلى هذا، لم تعثر الشرطة، أو أجهزة الأدلة الجنائية،



على أى أثر، يشير إلى حدوث جريمة من أى نوع، فى المنزل، أو المعمل الصغير الملحق به، كما أن ذلك الحزن، الذى انهمر من عينى السيدة (نوال)، وهى تحتضن طفلهما الوحيد فى مرارة، بدا صادقًا للجميع؛ مما أثار الكثير من علامات الاستفهام حول اختفاء العالم...

فلقد بدا كما لو أنه قد تلاشى تمامًا...

ثيابه كلها فى موضعها...

حافظة نقوده..

سلسلة مفاتيحه...

وحتى بطاقات ائتمانه...

فكيف اختفى؟!

كيف؟!

كل هذا دار فى ذهن (ماجد)، وهو يستقبل مكالمة السيدة (نوال)، والتى طلبت منه الحضور إلى منزلها، حتى تطلعه على ما لا تستطيع أن تطلع أحدا عليه...

وبأقصى سرعة استطاعها، كان يدق باب فيلتها، لتستقبله بنفسها، قائلة فى حزن وانكسار، وابنها الصغير يتشبث بيدها فى توتر، وكأنه يخشى أن يختطفه منها أحد...

"كنت أعلم أنك ستأتى مسرعًا..."...

قالتها فى هدوء حزين، فازدرد (ماجد) لعابه فى صعوبة، وغمغم:

- لم يكن من الممكن أن أتأخر.

دعته للدخول، وجلست أمامه فى صالون الفيلا، وهى تضع ابنها الصغير على ركبتيها، فتشبث بها مرة أخرى، وهو يتطلع إلى (ماجد)

فى قلق، فربتت عليه فى حنان، محاولة تهدئته، وهى تقول:

- ليس لدىَّ من شك، فى انك تعلم لماذا أنت هنا.

غمغم (ماجد)، محاولا كتمان انفعاله:

- بشأن اختفاء الدكتور (سالم).

أومأت برأسها إيجابًا، وضمت إليها ابنها أكثر، وهى تقول:

- بالضبط... المجتمع كله منشغل بالبحث عن سر اختفائه، ولقد استجوبتنى الشرطة ثلاث مرات، وأخبرتهم فى كل مرة أننى مثلهم، أجهل سر اختفائه.

غمغم (ماجد):

- أعلم هذا.

تطلعت السيدة (نوال) إلى عينيه مباشرة، قبل أن تقول فى حزم:

- ولكننى لم أكن صادقة فى هذا.

تراجع بحركة حادة، واتسعت عيناه وهو يحدق فيها، قبل أن يقول متلعثمًا:

- إذن فأنت تعلمين.

أومأت برأسها فى حزم، وهى تضم طفلها إليها، مجيبة:

- بالتأكيد.

قاوم ذلك الانفعال الشديد، الذى سرى فى كيانه كله، وهو يعتدل على مقعده، ويسألها فى توتر:

- وهل تنوين إخبارى؟!

أومات برأسها مرة أخرى، مجيبة:



- لهذا طلبت مقابلتك، فزوجى كان يطالع ما تكتبه دومًا، ويقول: إنك من أكثر من يكتبون فى هذا المجال صدقًا والتزامًا.

أومأ برأسه، وهو يزدرد لعابه، دون أن يستطيع النطق بكلمة، فتابعت هى فى هدوء، لا يتناسب حتمًا مع الموقف:

- اختفاؤه يرتبط بذلك الكشف الكبير، على نحو مدهش، ولكنه كان يخبرنى دوماً أنه يحتاج إلى إجراء ولو تجربة واحدة على البشر، قبل أن يعلن كشفه.

اندفع يسألها فى لهفة:

- وما هذا الكشف بالضبط؟!

صمتت لحظات، متطلعة إليه، قبل أن تجيب فى حزم:

- حلم البشرية منذ الأزل... الإكسير... إكسير الشباب.

تراجع فى مقعده كالمصعوق، يحدِّق فيها ذاهلا مستنكرًا، وكأنما تصوَّر أن المرأة قد أصيبت بنوع من الجنون، بسبب اختفاء زوجها المفاجئ، وبدا من نظراتها أنها قد استوعبت ما دار فى ذهنه، فهزت رأسها، واحتضنت ابنها أكثر، وكأنها تحميه منه، وهى تقول:

- أعلم أن هذا قد يبدو أشبه بالجنون، ولكن المؤسف أنه حقيقة... (سالم) توصل بالفعل إلى عقار يعيد الحيوية والشباب لخلايا الجسد، بحيث ينقص بيولوجيًا عدة سنوات من العمر، قدرها هو بعشر سنوات تقريبًا، من النتائج التى حصل عليها، من تجاربه على حيوانات المعمل.

غمغم (ماجد):

-ولكن هذا...

قاطعته فى حزم:

- حقيقة يا أستاذ (ماجد)... حقيقة ستفسّر لك كل شىء، لو أنك فقط حرّرت عقلك، وقرّرت قبولها.

ظلّ صامتًا بضع لحظات، يواصل تحديقه فيها، قبل أن يقول فى توتر:

- فليكن... ما علاقة هذا باختفائه.

مطّت شفتيها، وألقت نظرة حانية على طفلها، قبل أن تقول:

- لقد أيقظنى ذات يوم، قرب الفجر، ليخبرنى أنه قد أجرى التجربة على نفسه، وتناول العقار، الذى يبدأ تأثيره خلال ساعات قليلة... ليلتها أصابنى الفزع، وعاتبته على ما فعل، ولكنه كان حنونًا للغاية، وهو يخبرنى انه واثق من نجاح عقاره، وسرعان ما سأدرك هذا.

غمغم (ماجد)، وهو يحاول ازدراد لعابه فى صعوبة:

- هل... هل قتله العقار؟!

هزّت رأسها نفيًا، وهى تجيب:

- على العكس... لقد نجح نجاحًا مبهرًا! ففى العاشرة من الصباح التالى بدأ تأثيره شديد الوضوح... لقد زالت تجاعيد وجهه القليلة، وصارت بشرته صافية، واختفى الشيب، الذى كان قد بدأ يسرى فى شعره، وبدا أكثر حيوية ونشاطًا، إلى حد جعله يشبه صورته، عندما كان فى الثالثة والثلاثين من العمر.

هتف (ماجد) مبهورًا:

- مدهش.

ابتسمت ابتسامة حزينة، وطبعت قبلة على جبين طفلها، قبل أن تقول:



- هكذا بدا الأمر فى البداية، مما جعله يطير سعادة، وأخبرنى أنه سيعد جرعة أخرى لى، حتى ننعم معًا بشباب أبدى، ونعوّض، تلك الأيام، التى ضاعت فى تجاربه وأبحاثه.

بدا مبهورًا بضع لحظات، قبل أن يسأل فى توتر:

- ما علاقة هذا باختفائه إذن؟! هل علمت جهة ما بكشفه العظيم فقرّرت التخلّص منه؟!

هزّت رأسها نفيًا مرة أخرى، وقالت فى حزن:

- مطلقًا... إنه، وعلى الرغم من سعادته، لم يعلن عن كشفه هذا لأية جهة، وانما عكف على صنع جرعة ثانية، مؤكّدًا أن الكشف سيذهل العالم، عندما نظهر معًا فى المؤتمر الصحفى أصفر سنًا، ويرى العالم كله عبقرية كشفه.

سألها (ماجد)، وقد ازداد انفعالا:

- ماذا حدث إذن؟!

تنهّدت بكل الحزن والأسى، قبل أن تجيب:

- فى صباح اليوم التالى، أصابنى الذعر، عندما شاهدت شابًا يافعًا يخرج من معمله، وعلى وجهه كل علامات الأسى، ليفاجئنى بأنه (سالم) زوجى، وبأن العقار مازال مستمرًا فى تأثيره، ولم يتوقف عند حدود السنوات العشر التى توقعها، بل يواصل عمله، حتى صار هو فى أوائل العشرينيات من عمره.

اتسعت عيناه عن آخرهما، مغمغمًا:

- يا إلهى!

واصلت بكل الحزن والأسى:

- الذعر الذى أصابه، كان أضعاف الذعر الذى أصابنى، ولقد أخبرنى أنه سيبذل قصارى جهده؛ لإنتاج عقار مضاد، يوقف عمل الإكسير، فى أسرع وقت ممكن.

صمتت لحظة، لم يجرؤ هو فيها على نطق حرف واحد، قبل أن تكمل:

- ولكن ذاكرته كانت تنخفض بدورها، وتتناسب مع ما كان عليه، فى العشرينيات من عمره، وارتبك عمله، وفشلت محاولاته، و...

عادت إلى صمت مفعم بالحزن لحظات، قبل أن تضيف فى اقتضاب:

- ولم ينجح عقاره المضاد.

اتسعت عينا (ماجد) عن آخرهما، وهو يغمغم:

- وماذا حدث بعدها؟!

زفرت زفرة حارة، وهى تجيب:

- واصل العقار عمله.

سألها فى صعوبة:

- إلى أى مدى؟!

ابتسمت ابتسامة شاحبة حزينة، وهى تهز رأسها، وغمغمت، وهى تطبع قبلة أخرى على جبين طفلها:

- من حسن الحظ أننا لم ننجب.

اتسعت عينا (ماجد) أكثر، وهو يحدّق فى طفلها، مغمغمًا، فى لهجة أقرب إلى الذعر:

- ولكن هذا....



بدت ابتسامتها أكثر شحوبًا، وهى تقول:

- من العجيب أن كل محققى الشرطة لم ينتبهوا إلى هذا... وكلهم تصوروا أن الطفل الذى أرعاه هو ابننا، ولم يخطر ببال أحدهم، ولو لحظة واحدة، أنه (سالم)... زوجى.

قفز من مقعده ذهولًا، وهو يحدّق فى الطفل، وانتبه فجأة، إلى أنه يبدو أصغر سنًا مما كان عليه، عندما وصل إلى المنزل، وانعقد لسانه، فلم يستطع النطق بكلمة واحدة، فى حين تابعت هى:

- زوجى الذى أحببته من كل كيانى، والذى سأظل أحبه وأرعاه.

بصعوبة بالغة، غمغم محدّقًا فى الطفل:

- وتريديننى أن أنشر هذا.

هزّت رأسها، قائلة:

- أردت فقط أن يشاركنى شخص ما الحقيقة... ويمكنك نشر ما تريد؛ لأننى اخترت التوقيت فى دقة؛ فمع موعد النشر لن يمكنك إثبات أى شىء.

قال فى صعوبة:

- هناك تحاليل للحامض النووى، و...

قاطعته فى حزم:

- كل هذا لن يفيد.

هتف:

- ولماذا؟!

كانت ثياب الطفل قد اتسعت، وبدا وكأنه فى الثالثة من عمره

فحسب، عندما طبعت قبلة أكثر حنانًا على جبينه، مجيبة:

- لأنه سيكون عندئذ، قد...

بترت عبارتها، لتزدرد لعابها في صعوبة، ثم تكمل مرتجفة:

- تلاشى.

ومن فرط ذهوله، لم ينطق (ماجد) بكلمة واحدة...

أية كلمة.

• • •



## كم مهمل...

انفعال عجيب، ذلك الذى استقبل به (حمدى) زميل عمره (فؤاد)، فى تلك الليلة..

ولكنه انفعال لم يدهش (فؤاد) لحظة واحدة...

فمنذ كانا زميلين فى كلة العلوم، لم يتغيَّر كلاهما قط...

(فؤاد) هادئ دومًا، شديد الصبر فى كل ما يخطط له، شديد الذكاء على نحو ملحوظ...

(حمدى) أيضًا كان دومًا شديد الذكاء، إلى حد بهر كل أساتذته، ولكنه، على عكس (فؤاد)، كان دومًا قليل الصبر، كثير الانفعال والحماس، فى كل ما يدرسه ويفعله، ويخطِّط له...

وبعد تخرجهما، وعلى الرغم من عبقريتهما، ومن أنهما كانا على رأس دفعتهما بفارق ملحوظ، لم يتم تعيين أيهما كمعيد فى الكلية؛ لأن ابنى اثنين من أساتذة الكلية، ممن يقلون عنهم ذكاءً، فازا بالمنصبين لأسباب واهية، لم تقنع أيهما...

وفى الوقت الذى اكتفى فيه (فؤاد) بوظيفة باحث، فى المعهد القومى للبحوث، براتب محدود، إلى جوار عمله كاستشارى علمى، لعدة شركات خاصة، رفض (حمدى) التعيين فى أية وظيفة، حكومية أو خاصة، واستغل الثروة التى ورثها عن والده الراحل؛ لينشئ لنفسه معمل أبحاثه الخاص، فى فيلا الأسرة القديمة فى (قويسنا)...

ومنذ أكثر من عامين، يتحدَّث (حمدى) فى حماس عن اختراع جديد، سيجعله أشهر عالم فى الكرة الأرضية كلها، وسيرشحه حتمًا للفوز بجائزة (نوبل) فى العلوم...

ولأن (حمدى) يتحدث دومًا فى حماس وانفعال، أيًا كان ما يتحدث



عنه، لم يهتم (فؤاد) كثيرًا بحديثه، وواصل حياته على نحو طبيعى...

حتى كان هذا اليوم...

لقد اتصل به (حمدى) فى حماس شديد، وأخبره أنه قد أنهى اختراعه، ويريده أن يكون شاهدًا على تجربته الأولى...

وعلى الرغم من مشاغل (فؤاد) العديدة، قرَّر ألا يخذل زميل عمره، وقاد سيارته فى السادسة مساءً، إلى فيلا عائلة (حمدى) فى (قويسنا)...

كان يعرف المكان جيدًا، منذ كان والد (حمدى) الراحل يدعوه إلى ما أسماه عزبته، حيث كانت الفيلا خارج مدينة (قويسنا)، ومحاطة بفدانين من الفواكه، كان لهما الفضل فى رفض (حمدى) للعمل، وعدم احتياجه للمال...

وعندما وصل (فؤاد) إلى الفيلا، وقبل أن يطرق بابها، لفت انتباهه جسمان كبيران، أشبه بكشكى هاتف قديمين، تم وضعهما إلى جوار سور الفيلا، وتم إيصالهما بكابلات كهربية للضغط العالى...

وما إن رآه (حمدى)، حتى هتف بكل انفعاله:

- كنت أعلم أنك ستأتى.

غمغم (فؤاد)، فى حذر لم يدر له سببًا:

- كان من الضرورى أن أفعل.

كان (حمدى) يلهث من فرط الانفعال، وهو يميل نحوه، قائلًا:

- لقد فعلتها... حققت حلم العلماء، منذ عشرات السنين.

سأله (فؤاد) بنفس الحذر:

- أى حلم منها؟! العلماء لهم الكثير من الأحلام.

اعتدل (حمدى)، ولهث أكثر، وهو يجيب:

- الانتقال الآنى.

ارتفع حاجبا (فؤاد) فى شدة، وهو يحدّق فيه بعينين اتسعتا عن آخرهما، من فرط الذهول...

الانتقال الآنى هو بالفعل حلم العلماء، منذ عشرات السنين...

حلم الانتقال فى الزمان والمكان آنيًا...

حلم أن تكون فى (مصر)، وتدخل جهازًا خاصًا، يفكك أجزاء جسمك، وينقلها كالموجات اللاسلكية، إلى جهاز مماثل فى (سوريا)...

أو حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية...

والأهم أن يفعل هذا فى لحظة واحدة...

شىء أشبه بالسحر والخرافة...

ولكن هكذا العلم، وهكذا التكنولوجيا...

فى البداية تكون فكرة أشبه بالحلم...

ثم نظرية مبهرة، تؤيدها معادلات رياضية وفيزيائية...

وبعدها، وفجأة، تصبح حقيقة...

حقيقة تبهر الناس وتدهشهم فى البداية، ثم سرعان ما يعتادونها، ويستخدمونها فى حياتهم اليومية، ويضيع انبهارهم بها، ويبحثون عن الانبهار التالى...

والتالى...

والتالى...

وهكذا...



ومتابعته لدنيا العلم والتكنولوجيا أثبتت له هذا...

ففى العقد الأوّل فقط، من القرن العشرين، تحوّل الكثير من الخيال إلى حقيقة...

العالم الروسى (شيرنوبروف)، اخترع آلة الزمن، عام 1997 م...[1]

والدكتور (محمد على) حوّل الاختفاء من خيال إلى حقيقة، عام 2000 م...[2]

وحتى التصغير، حققه علم (المونوبول)، و(الفيمتوثانية)، جعلها الدكتور (أحمد زويل) حقيقة علمية...

وها هو ذا (حمدى) يحدثه عن الانتقال الآنى...

وانتقلت إليه عدوى الانفعال، وهو يسأله:

- ولكن كيف؟! كيف فعلتها يا (حمدى)؟!

أجابه بكل حماسة:

- هذه قصة طويلة يا صديقى... المهم أننى قد فعلتها.

ثم عاد يميل نحوه، مكملاً:

- كانت التضحيات كبيرة.

(1)، (2) حقيقة علمية.

غمغم (فؤاد) فى قلق:

- أى نوع من التضحيات؟

أطلق (حمدى) ضحكة انفعالية، وهو يقول:

- ليس ما يدور فى ذهنك، فلسنا فى فيلم رعب أمريكى... كل ما فى الأمر أننى اضطررت لبيع نصف الحديقة.

ثم غمز بعينه، مضيفا:

- عمل كهذا، يحتاج إلى نفقات باهظة.

قالها، وهو يجذبه من يده فى حماس، إلى الكشكين المجاورين لسور الفيلا، وهو يقول فى سعادة عجيبة:

- انظر إليه؟! ألا يبدو جميلا؟

تطلع (فؤاد) إلى الكشكين قبيحى المظهر، وهو يقول فى حذر:

- بالفعل.

بدا (حمدى) أكثر حماسا، وهو يقول:

- ذلك إلى اليمين هو المرسل... يدخل الشخص فيه، ويغلقه فى إحكام، ويتم تشغيل الجهاز آليًا، ليفكك ذرات جسده، وينقلها إلى المستقبل، الموجود فى اليسار.

نقل (فؤاد) بصره بين الكشكين، قبل أن يسأله فى قلق:

- وأين موضوع التجربة؟! من ستختبر عليه جهازك؟!

تراجع (حمدى) خطوتين، وأشار إلى صدره، وهو يجيب فى زهو:

- أنا.

اتسعت عينا (فؤاد)، قبل أن يقول فى عصبية:



- أية حماقة هذه؟! لو تصوَّرت أننى سأساعدك على هذا، فأنا...

قاطعه (حمدى) فى انفعال:

- أنت هنا فقط لتكون شاهدًا على التجربة؛ فكل شىء يعمل آليًا، فور إحكام إغلاق الباب... كل شىء.

سأله (فؤاد) بنفس العصبية:

- هل أجريت أية تجارب سابقة قبل أن تجازف بتجربة الجهاز على نفسك؟!

هتف بكل حماس:

- بالطبع.

ثم هز كتفيه، وهو عاجز عن السيطرة على انفعاله، وهو يكمل:

- كان هذا جزءًا من التضحيات، التى حدثتك عنها؛ فأول ما أخضعته للتجربة، كان قطى الصغير (ميرو)... هل تذكره؟!

لم يجب (فؤاد) السؤال، وانما سأله:

- وهل نجحت التجربة؟!

مط (حمدى) شفتيه، وأجاب فى أسف:

- بل كانت كارثة.

جف حلق (فؤاد)، وهو يسأله:

- كيف؟! ماذا أصابه؟!

أجابه بنفس الأسف:

- تلاشى... لست أدرى كيف، ولكنه اختفى من المرسل، ولم يصل أبدًا إلى المستقبل... ربما تلاشت ذراته فى الهواء، أو...

لم يتم عبارته، فسأله (فؤاد)، وقلقه يتصاعد:

- أو ماذا؟!

أطلق ضحكة عصبية، ولوَّح بيده فى الهواء، وهو يقول:

- المهم أن التجارب التالية كانت ناجحة... ناجحة تمامًا... انظر إلى المعادلات.

راح يضغط أزرار الكمبيوتر الملحق بالمرسل، وعينا (فؤاد) تراجع تلك المعادلات الفيزيائية المعقدة فى لهفة...

وفى تلك اللحظة بالذات، كان عليه أن يعترف أن (حمدى) يفوقه ذكاءً بكثير...

لقد كسر تقريبًا، ثلاث نظريات فيزيائية، وأثبت نظريتين أخريين؛ لكى يتوصل إلى المعادلات شديدة التعقيد للانتقال الآنى...

وبكل الانفعال، الذى صنعه به هذا، أشار إلى رقم صغير، متسائلاً:

- ما هذا بالضبط؟!

ألقى (حمدى) نظرة لامبالية على الرقم، وهو يجيب:

- كمّ مهمل... مجرَّد كمّ مهمل، لا تأثير له على المعادلات الأصلية.

ثم عاوده الحماس، وهو ينزع بعض ثيابه، قائلاً:

- المهم الآن هو أن تستعد؛ فستشاهد أوَّل تجربة انتقال آنى بشرية فى التاريخ.

كان يستعد لدخول المرسل بالفعل، بعد أن أعدَّ كل شىء، عندما سأله (فؤاد)، وقلبه يخفق فى قوة:



- كيف تنتقل ذرات الجسد فى الهواء دون تبعثر؟!

أطلق (حمدى) ضحكة حماسية، وهو يقول:

- لا تضيع الوقت يا صديقى، سأخبرك بكل شىء عند عودتى... واطمئن... هذا لن يستغرق سوى لحظات.

هم (فؤاد) بإلقاء سؤال قلق آخر، ثم لم يلبث أن أطبق شفتيه، وراح يراقب فى اهتمام وانتباه شديدين...

وبنفس الحماس، دخل (حمدى) كشك الإرسال، ولوّح له بيده وهو يبتسم فى ثقة، ثم أغلق الباب، وأحكم إغلاقه، و...

وارتجف جسد (فؤاد) فى شدة، عندما بدا وكأن عدة صواعق كهربية قد انطلقت داخل كشك الإرسال، فى حين بدأ جسد (حمدى) يتلاشى، حتى اختفى تمامًا، وتوقفت الصواعق...

وبسرعة، انتقل بصر (فؤاد) إلى كشك الاستقبال، ونبض قلبه فى عنف شديد...

ونبض...

ونبض...

ولم يظهر (حمدى)...

ثوان مضت...

ثم دقائق طالت...

ولم يحدث شىء...

وبكل الهلع، اندفع (فؤاد) نحو كشك الاستقبال، وهو يهتف:

- (حمدى)... أين أنت؟!

لم يدر ما إذا كان من الممكن أن يسمعه أو لا!

بل لم يدر حتى أين يمكن أن يكون...

ولكنه ظل يصرخ باسمه بلا انقطاع...

وبعد مرور نصف الساعة، دون أن يظهر (حمدى)، أصيب (فؤاد) بحالة من الذعر الشديد، وراح يدور حول الكشكين، وكأنما يبحث عن أى أثر لصديقه، الذى اختفى تمامًا....

إنه ذلك الكمّ المهمل، الذى لم يضعه (حمدى) فى اعتباره...

لابد وأنه يؤثر فى عملية الانتقال الآنى...

ولكن كيف؟!

كيف؟!

كان يميل بجسده كله، وهو يلقى السؤال فى أعماقه؛ ليلقى نظرة على ذلك الفراغ الصغير، الذى يفصل الكشكين عن الجدار، عندما اتسعت عيناه عن آخرهما، وتراجع فى عنف كالمصعوق، وهو يصرخ:

- مستحيل!!!

فمن السور الحجرى السميك، خلف كشك الاستقبال، كان يبرز جزء من ذيل كثيف الفراء...

وإلى جواره كانت تبرز نهاية يد، خلت أصابعها من الحياة...

يد (حمدى)، الذى نجح اختراعه تمامًا، مع فارق ضئيل، صنعه ذلك الكمّ المهمل البسيط...

لقد انتقل انتقالاً آنيًا بالفعل، بنفس الوسيلة التى انتقل بها قطه السابق (ميرو)...



انتقل من كشك الإرسال...

وإلى قلب السور الحجرى السميك...

مباشرة.

• • •

# قطرات الماء...

" أنت قتلتنى... " ...

قالتها (سلوى)، وهى تقترب سابحة فى الهواء، من زوجها (عامر)، الذى التصق بجدار ذلك المنزل القديم، صارخًا:

- ابتعدى عنى.

كانت صرخته تحمل ذلك الارتجاف الشديد، الذى شمل جسده كله، وهو يحدّق فى شبح زوجته، الذى واصل سباحته فى الهواء نحوه، وهى تواصل دون أن تفتح شفتيها:

- خدعتنى بنزهة رومانسية، على نيل (القاهرة)، ثم ربطت ذلك الحجر الكبير فى ساقى، بعد أن هاجمتنى، وكبّلت حركتى.

أخفى وجهه بذراعيه، وهو يهتف، فى صراخ مرتجف، أقرب إلى البكاء:

- إليك عنى... أتوسل إليك.

كانت تقترب أكثر وأكثر، متابعة حديثها، وكأنها لا تسمعه:

- توسلت إليك أن ترحمنى... رجوتك أن تتركنى أحيا... تضرّعت إليك أن تبقى على حياتى، من أجل ابنتى الوحيدة، ولكنك صممت أذنيك، وحملتنى قسرًا، وألقيت بى فى النيل.

انهار على ركبتيه، وهو يقول:

- الرحمة... كنت أدافع عن نفسى.. أنت قلت إنك ستبلغين الشرطة، ولم يكن أمامى سوى...

قاطعته، وهى تدنو، حتى صار وجهها الشبحى، المائل إلى الزرقة، فى مواجهته مباشرة، وهى تتمتم:

- امتلأ صدرى بالماء، ورحت أغرق، وأغرق... وأغرق...



صرخ وهو يضرب ذراعيه فى الهواء:

- ابتعدى.

ثم استيقظ دفعة واحدة....

كان العرق يغمر جسده القوى، على الرغم من برودة الطقس، وراح يلهث فى شدة، وهو يتلفت حوله فى ذعر، قبل أن يغلق عينيه، مغمغمًا فى ارتجاف:

- ذلك الكابوس اللعين مرة أخرى.

هزّ رأسه فى قوة، وكأنما ينفض عنه ذلك الكابوس، الذى يؤرق نومه، واعتدل يجلس على طرف الفراش، ويواصل لهاثه بعض الوقت، قبل أن يغمغم بكل توتره:

- ألا يفارقنى أبدًا؟

تأمل الأثاث الرث من حوله، والجدران المتشققة، التى بدت آثار الرطوبة فيها واضحة، ورفع عينيه إلى السقف الخشبى القديم، قبل أن يضيف:

- لقد تركت كل شىء، وعدت إلى حيث بدأت، فلماذا يطاردنى الكابوس نفسه؟! لماذا؟!

نهض فى تباطؤ، يشعل ذلك الموقد القديم، ويضع فوقه إناءً من الألومنيوم، وضع فيه بعض الماء، وتراجع يسترجع ذكرياته...

من هنا بدأ...

من هذا المنزل المتهالك، الذى نشأ وترعرع فيه، مع أبوين يجدان قوت يومهما بالكاد، وعذاب جعله يكره فقره، منذ نعومة أظفاره، ويسعى للخلاص منه...

وبأى ثمن...

وفى الخامسة عشرة، بدأ فى تحقيق ما يصبو إليه، واحترف سرقة الملابس، التى يضعها أصحابها لتجف، فى منازل الطوابق السفلى، ثم سرعان ما انتقل إلى سرقة المنازل نفسها، عندما يغيب عنها أصحابها، قبل أن يبدأ، مع سن العشرين، فى احتراف مهنة أقل خطورة، من وجهه نظره...

النصب والاحتيال..

استعان بالثياب الأنيقة، التى سرقها من قبل؛ ليمنح نفسه مظهرًا لا يشف عن أصله، وراح يرتاد الأماكن الفاخرة، مع رصيد سرقاته المنزلية، ويتعامل على النحو الذى يبعث فى نفسك الثقة، شان أى نصاب...

وفى الخامسة والعشرين، استحق عن جدارة لقب (نصَّاب محترف)، بعد أن نجح فى الاحتيال على مواطنين عاديين، والاستيلاء على مدخرات عمرهم، ثم على رجال أعمال صغار؛ ليصعد إلى مرتبة النصب على رجال أعمال كبار نسبيًا، و...

وهنا، التقى بزوجته (سلوى)..

منذ اللحظة الأولى، أدرك أنها صيد ثمين للغاية، فهى أقل من متوسطة فى مستوى الجمال، تميل إلى البدانة، وأرملة لواحد من كبار المقاولين، ولديها منه ابنة واحدة، فى السادسة من عمرها...

فى البداية، وضع خطة للاحتيال عليها، وإيهامها أنه رجل أعمال جديد؛ فى محاولة للاستيلاء على مبلغ ذى ستة أصفار منها...

ولكن (سلوى) لم تكن بالصيد السهل...



كانت سيدة أعمال ذكية، متمرسة، وليست من النوع الذى يسهل الإيقاع به...

ولكنه، وكأى نصَّاب، لا يستسلم فى سهولة، ثم إنه يتمتع بوسامة طبيعية، تؤهله لتحويل دفة العملية إلى جانب آخر...

وهكذا بدأ الاحتيال عليها، على نحو بطىء؛ بحيث أوهمها بأنه واقع فى غرامها، وأوحى إليها بأنه عاجز عن مفاتحتها فى هذا...

وخلال عام كامل من الصبر، أدى دوره على خير ما يرام...

زهور جميلة غالية، تصلها فى عيد مولدها...

صورتها تسقط من جيبه أمامها، بمصادفة ملفقة، ويستعيدها فى سرعة، متصنعًا الخجل، بعد أن يثق تمامًا فى أنها قد لمحتها...

كلمات حانية رقيقة كلما التقيا...

ثم أخيرًا، وبعد أن أيقن من أنها قد التقطت الطعم، توجه إليها، وكله خجل وحياء، يطلب منها قبول دعوته إلى عشاء متواضع..

كانت تلك هى المرة الأولى، التى لمس فيها يدها، ثم تراجع كمن صعقه تيار كهربى، وراح يلهث بالاعتذار والأسف...

وابتسمت هى...

ابتسامتها جعلته يشعر بالظفر والانتصار...

وبعد شهر واحد، تم زفافهما...

وخلال عام كامل، بدا لها مثالاً للزوج الحنون، يعاملها بكل رقة، ويفاجئها بهداياه كل حين وآخر، فى مناسبات خاصة، أو حتى دون مناسبات، ويداعب ابنتها الوحيدة ويلاعبها طوال الوقت، حتى شعرت (سلوى) بأن القدر قد أنعم عليها بالزوج الذى تحلم به كل امرأة...

حتى كان ذلك اليوم، الذى كشفت فيه أمره...

كان يستغل ثقتها الشديدة، ويستولى على كل ما يقع تحت أيديه من أموالها، ومن قطع مجوهراتها، ثم يكون أوَّل من يقف إلى جوارها، ويصر على إبلاغ الشرطة، واتهام سفرجى أو خادمة..

ولكن حياته السابقة، لم تكن لتتركه يواصل لعبته القذرة...

ذات يوم، اصطدم بأحد عملاء شركتها، ممن كانت له معه قصة احتيال سابقة...

ومنه عرفت (سلوى) حقيقته، ولأوَّل مرة...

فى البداية لم تصدَّق، ثم بدأت فى ترتيب الأحداث والوقائع، وبعدها واجهته، وطالبته بإعادة كل ما سرقه منها، وإلا أبلغت الشرطة بأمره...

ولأنه محتال محترف، نجح فى تهدئتها، وطلب منها أن يخرجا فى نزهة، رومانسية أخيرة، تذكرهما بشهر عسلهما، وبعدها سيعيد إليها كل شىء، ويختفى من حياتها تمامًا...

ولكنه لم يفِ بوعده، ولم يختفِ من حياتها...

هى التى اختفت من حياته...

والى الأبد..

قتلها بدم بارد، وعاد وحده إلى منزل الزوجية، واستولى على كل ما استطاع الوصول إليه، من الأموال والمجوهرات، قبل أن يختفى تمامًا...

كان يعلم أنه أوَّل من ستتجه إليه أصابع الاتهام، وأن الشرطة ستبحث عنه حتمًا، ولكنه كان بلا سوابق، وكل الأوراق التى استخدمها للزواج منها، كانت مزوَّرة غير صحيحة، والشرطة لن تعثر على الزوج القاتل أبدًا...



ثم من سيبحث عنه هنا؟!

فى تلك المنطقة العشوائية الفقيرة، التى نشأ وتربى فيها...

من؟!

صب الماء بعد غليانه، على قليل من الشاى، تناوله على مهل، وألقى نظرة على ساعته، التى أشارت عقاربها إلى الثالثة صباحًا، وتطلَّع لحظات إلى فراشه، ثم قرَّر العودة إلى النوم من جديد...

" أنت قتلتنى... " ..

فى هذه المرة، كانت (سلوى) تقترب منه، سابحه فى الهواء، والماء يقطر من شعرها القصير، وكأنها قد خرجت من الماء على التو، فتراجع، وهو يهتف:

- اتركينى لحالى... ماذا تريدينى منى؟!

بدا له وكأنه يسمع صوت الرعد من بعيد، وصوت المطر ينهمر، ويغمر شعرها القصير المتلبد، وهى تزداد قربًا، قائلة:

- الجزاء دومًا من جنس العمل.

صرخ:

- أنت أجبرتنى... لو لم تهددى بإبلاغ الشرطة لصار كل شىء على ما يرام لكلينا.

تقاطر الماء من شعرها أكثر وأكثر، وجسدها الشبحى يسبح فى الهواء، مقتربًا منه، مكررًا:

- سألتك أن ترحمنى فلم تفعل... أنت قاتل... قاتل.

ضرب ذراعيه فى الهواء، وهو يصرخ:

- وأنت لست هنا... أنت مجرَّد شبح.

اقترب شبحها منه أكثر وأكثر، فحدَّق فى وجهها الأزرق فى رعب، وبدا له وكأن الماء قد صار يسيل من رأسها فى غزارة، وهى تكرر:

- الجزاء لابد وأن يكون من جنس العمل...

كان وجهها الذى يزداد زرقه يبدو مخيفًا، إلى حد جعله يرتجف، من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه، وتمنى أن يخرج من هذا الكابوس الرهيب، ففتح فمه ليقول شيئًا...

أى شىء...

ولكن حرفًا واحدًا لم يخرج من بين شفتيه...

وكما يحدث فى الكوابيس، خيِّل إليه أن جسده كله قد تخشَّب، ولم يعد يستطيع تحريك إصبع واحد منه...

حتى فمه، الذى انفتح، لم يستطع إغلاقه مرة أخرى...

واقترب شبحها منه أكثر...

وأكثر...

وأكثر...

وبصوت بدا وكأنه يخرج من أعماق قبر قديم، قالت:

- أغرقتنى، وعليك أن تدفع الثمن...

أصبح وجهها فوقه مباشرة، وعيناه تحدقان فى عينيها اللتين بدتا كجمرتين من لهب، وسط وجه شديد الزرقة...

وسال الماء غزيرًا من شعرها على وجهه...

شعر به يغمره...



ثم شعر به يتساقط عبر فمه المفتوح...

ويملأ حلقه...

حاول أن يسعل...

أو حتى يغلق فمه...

ولكنه لم يستطع...

والماء يسيل فى حلقه...

ويسيل...

ويسيل...

" هذه أوَّل حالة أراها فى حياتى... "..

غمغم طبيب الصحة بالعبارة بكل دهشته، وهو يرفع عينيه إلى السقف المبتل، الذى مازلت بقايا أمطار الامس تتساقط منه، قبل أن يضيف:

- لم أر فى حياتى من قبل شخصًا يموت غرقًا فى فراشه!! الماء تساقط من السقف، فى حلقه مباشرة.

التفت ثلاثة من رجال تلك المنطقة العشوائية حول فراش (عامر)، الذى حمل جثته مفتوحة العينين عن آخرهما، وفمه الذى يسيل منه ماء المطر، وغمغم أحدهم فى خشوع:

- هكذا عثرنا عليه.

وافقه الطبيب بإيماءة من رأسه، وهو يقول:

- هذا يبدو واضحًا، إلا أننى مازلت أتساءل: كيف بقى فى هذا الوض والماء يملأ فمه؟! فى الحالات الطبيعية، يسعل المرء، ويدير

رأسه بعيدًا عن الماء المتساقط...أو حتى يستيقظ، ولكنه بقى على موضعه، حتى مات غرقًا.

وهزَّ رأسه فى قوة، وهو يضيف، مخرجًا قلمه لتوقيع شهادة الوفاة:

- أظن أن هذا سيبقى لغزًا... لغز بلا حل... على الإطلاق.

ووقَّع شهادة الوفاة.

• • •

# ذاكرتـــى...

من أنا؟!

كان هذا أوَّل سؤال طرحته على نفسى، عندما استعدت وعيى، فى تلك المنطقة المقفرة، مع مغيب الشمس...

أوَّل ما رأته عيناى، عندما فتحتهما، هو قرص الشمس الأحمر، وهو يتوارى خلف الجبال فى الأفق...

كانت هناك الكثير من الجبال من حولى، كما لو أننى وسط منطقة جبيلة، فى صعيد (مصر) !! أو ربما فى (سيناء)!!

لم أكن أدرى..

كنت أجهل تمامًا ما الذى أتى بى إلى هذا المكان...

ولماذا؟!

بل كنت أجهل حتى من أنا!!!

كنت أشعر بصداع شديد يكتنف رأسى، وبألم فى مؤخرة عنقى، كما لو أننى قد تلقيت ضربة ما، فى وقت ما...

وربما كان هذا ما أفقدنى وعيى...

وذاكرتى...

توقفت فى مكانى، لا أدرى أين أذهب بالضبط، فقد بدا كل ما يحيط بى متشابهًا، حتى لا يمكننى تحديد إلى أى اتجاه ينبغى أن أسير...

ولم أكن أستطيع البقاء فى مكانى، فى الوقت ذاته؛ لذا فقد أخذت الاتجاه، الذى لا ترتطم عينى فى نهايته بجبل ما، ومضيت قدمًا إليه...

وبينما أسير بلا هدى، رحت أعتصر عقلى، محاولاً إنعاش ذاكرتى...



" ماذا تريدون منى؟! "...

تذكَّرت صرختى المذعورة، وعربدت فى رأسى ذكرى رجال يهاجموننى، فور هبوطى من سيارتى أمام منزلى...أذكره جيدًا...

إنها فيلا صغيرة، فى حى شديد الهدوء، من أحياء (المعادى)... عظيم... هذا يعنى أن ذاكرتى فى طريقها إلى العودة...

كان الظلام يطبق فى سرعة، تساعده فى هذا الجبال العالية، فى غرب الطريق، الذى أسير فيه؛ مما جعل الخوف يتسرب إلى نفسى، من أن أفقد القدرة على الرؤية، فلا يعود لسيرى من هدف...

ولكن القمر بدأ يبرز فى السماء...

ومن حسن حظى أنه كان بدرًا؛ مما جعل ضوءه الفضى ينير الطريق أمامى، ويزيل منى بعض الخوف، وإن أضافت تلك الظلال الضخمة، التى تلقيها الجبال، جانبًا آخر إلى مخاوفى، مما جعلنى أرفع عينىَّ إلى القمر المضىء، الذى بدا لى أشبه بمصباح كبير مضاء، و...

" ماذا تفعلون بى؟!... "...

استعاد عقلى فجأة، تلك الصرخة المذعورة التى أطلقتها، وانا أحدِّق فى دائرة الضوء الكبيرة، فوق رأسى مباشرة، وهم يقيدوننى إلى مائدة تشبه موائد الجراحة...

بل كانت بالفعل مائدة جراحية...

وهم يلتفون حولى، بتلك الثياب الخضراء، التى يرتديها الجراحون فى المعتاد، والقفازات المطاطية تغطى أيديهم، والكمامات الطبية تخفى وجوههم...

" لا تقلق... إنها مجرد تجربة علمية.. "...

قالها أحدهم، فصرخت – حسبما أذكر- بكل التوتر والذعر:

- ومن أخبركم أننى فأر تجارب؟!

أذكر جيدًا ألم تلك الإبرة، التى انغرست فى ذراعى، مع ذلك الصوت، الذى بدا وكأنه يأتى من أعماق سحيقة:

- اهدأ، وسيكون كل شىء على ما يرام.

ثم بدأت ذاكرتى تنسحب...

وتنسحب...

وتنسحب...

من أنا؟!

عدت أطرح السؤال على نفسى، التى امتزج فيها الخوف بالتوتر الشديد، مع استعادتى لتلك الذكريات، التى لا تدعو أبدًا إلى الارتياح.

ما تلك التجربة التى كانوا يتحدثون عنها؟!

ولماذا يجرونها علىَّ؟!

ولأى هدف؟!

" ما تقوله أشبه بالخيال العلمى يا دكتور (حسنى)... " ..

استعدت فجأة تلك الذكرى، التى لا ترتبط بما استعدته من قبل...

" لا يوجد مستحيل فى العلم يا دكتور (مندور)... " ...

كنت أستعيد حوارًا بين رجلين، ربما سمعتهما يتبادلانه...

أو أننى كنت أحدهما...

لست أدرى!

" الاستنساخ لم يعد خيالاً، بل أصبح حقيقة واقعة... " ...



" ومازال استخدامه على البشر غير قانونى، فى كل دول العالم... " ...

" هذا عندما يرتبط بالأسلوب التقليدى، الذى يتم فيه محو الكروموسومات تمامًا من البويضة، وزرع خلية غير جنسية فيها، ثم إعادة زرعها فى رحم آدمى؛ ليتواصل نموها، كأى جنين طبيعى... " ..

" هذا ما تحتمه قواعد الطبيعة، أما الفكرة التى تتحدث عنها، فهى علميًا مستحيلة... " ...

" كل علم تحقق عبر التاريخ، أكدوا يومًا أنه مستحيل... " ...

عند هذه النقطة، غابت عنى الذاكرة مرة أخرى...

ولكننى أذكر هذا الحوار جيدًا...

وبكل تفاصيله...

وجسدى بدأ يشعر بالإرهاق، من طول السير وشدة التوتر والخوف...

من أنا؟!

مرة ثالثة طرحت على نفسى السؤال...

أأنا أحد طرفى ذلك الحوار الذى استعادته ذاكرتى؟! أم أننى كنت...

توقف السؤال فى رأسى فجأة، وقفز اسم جديد إلى ذاكرتى...

(مصطفى)... المساعد الطبى فى معمل الأبحاث...

لم تكن هناك مرآة، يمكننى فيها رؤية ملامحى، مما قد يساعدنى على استعادة ذاكرتى، وتحديد هويتى...

أأنا (مصطفى)، المساعد الطبى، الذى أجروا عليه تلك التجربة؟!

وما تلك التجربة بالضبط؟!

أهو أمر خاص بعلم الاستنساخ؟!

ولكن ما شأنى أنا بهذا؟!

بل من أنا من الأساس؟!

" ستفقد ذاكرتك بعض الوقت... "

رباه!!... تذكرت على التو تلك العبارة...

" ستبدو لك الأمور مشوشة، وسيرتبك عقلك تمامًا؛ لأنه لم يمر بما ينبغى أن يمر به، ولكن لا تقلق... "

أذكر العبارة، ولا أذكر مطلقًا قائلها!!

ولا لماذا قيلت؟

ومتى؟!

توقفت فجأة، وخفق قلبى فى قوة، وأنا أحدّق فى نقطة ما، على مرمى البصر...

بقعة ضوء صغيرة...

مصدر ضوئى يتحرك على مسافة لا يمكننى تقديرها بالضبط...

ولكنه يحمل لمحة الأمل، التى كنت فى أمس الحاجة إليها...

ولست أدرى ما إذا كنت واهمًا، أم أنها بالفعل حقيقة...

ذلك المصدر الضوئى توقف...

إنها سيارة ولا شك...

هذا يعنى أننى بالقرب من طريق رسمى...

أو أن أحدهم يبحث عنى...



وفى كل الأحوال، فقد سارعت الخطى، حتى يمكننى الوصول إلى حيث ذلك المصدر الضوئى، قبل أن يبتعد...

" لو صحّت تجربتك لن تكفى جائزة (نوبل)؛ لتقدير عملك... " ...

" أو ربما لن تكفى عقوبة الإعدام؛ لتجاوزى كل القوانين الطبية العالمية.... " ..

" لا يمكن أن يعاقبوا عالمًا فذًا على كشف مذهل كهذا... " ...

" الخلاف بين العلم والقانون، خلاف تاريخى يا زميلى العزيز... " ...

" ولكن تجربتك هذه مذهلة... مذهلة بحق... " ..

مرة أخرى، أستعيد الذكريات الخاصة بتلك التجربة، التى أجهل ماهيتها ! وهذا ربما يعنى أنها ترتبط بى، على نحو أو آخر...

زدت من سرعة خطواتى، محاولًا بلوغ بقعة الضوء، قبل أن تفارق مكانها، وشعرت بقليل من الارتياح عندما أدركت أننى أقترب منها...

وأنها ثابتة فى موقعها...

بدأت ساقاى تشعران بالتعب والضعف، وأصبحت سيطرتى على اتزانى تحتاج إلى بذل جهد خرافى، وعيناى ترهقهما الرؤية إلى حد كبير، إلا أننى استنفرت كل إرادتى؛ للوصول إلى بقعة الضوء، التى راحت تقترب...

وتقترب...

وتقترب...

وفجأة، قفزت إلى ذهنى فكرة، جعلتنى أتوقف دفعة واحدة، وأنا ألهث، من فرط الانفعال والإرهاق، وحدقت فى تلك البقعة المضيئة جيدًا...

لقد كنت على حق...

لست وحدى من أسعى إليها...

هى أيضًا تتجه نحوى مباشرة..

وبسرعة تفوق سرعتى...

ومع اقترابها، اتضحت معالمها أكثر...

لم تكن بقعة ضوء واحدة، بل بقعتين، تسيران معًا، وتفصلهما مسافة قصيرة...

إنهما مصباحا سيارة تقترب...

خفق قلبى فى قوة، وأنا أتابع اقترابها، ورحت ألهث أكثر، مع تصاعد انفعالى الشديد...

هناك شخص ما يبحث عنى بالفعل...

ويعلم أين أنا...

و...

"من أنا؟!"...

يا إلهى!.. أذكر جيدًا أننى قد طرحت السؤال على أولئك الرجال فى حجرة العمليات، التى لست أدرى لماذا وضعونى فيها!!

والعجيب أننى لست أذكر جوابهم مطلقًا !!

أو أننى لم أتلق منهم أية إجابة...

إذن فأنا لا أعانى من فقدان الذاكرة، منذ استعدت وعيى فحسب..

لقد فقدتها من قبل هذا!

فقدتها، عندما كنت هناك...



على مائدة العمليات الجراحية...

فجأة، وعند هذه النقطة، انتابنى فزع بلا حدود...

إنهم يبحثون عنى، ربما لأننى هارب من شىء ما...

أو لأننى مصاب بشىء ما...

وربما بجنون ما...

تلك الفكرة الأخيرة، قضت على ما تبقى من جهدى، فجلست القرفصاء، ودفنت وجهى بين كفَّى، ورحت أنتحب بلا دموع...

ثم غمر ذلك الضوء الساطع وجهى، فرفعت كفىَّ عنه، وحدَّقت فى تلك السيارة، التى توقفت على قيد أمتار منها، وفتحت أبوابها، وهبط منها ثلاثة رجال...

فى البداية لم أتبيَّن ملامحهم جيدًا، حتى اقتربوا منى، وقال أحدهم فى ارتياح:

- إذن فقد استعدت ذاكرتك.

حدَّقت فى ثلاثتهم، وذاكرتى تنتعش فجأة...

إننى أعرفهم جيدًا...

المساعد الطبى (مصطفى)، والدكتور (مندور)، والدكتور (حسنى)، و...

ولكن هذا مستحيل!

لا يمكن أن يكون الثالث هو الدكتور (حسنى) !!...

لأننى أنا الدكتور (حسنى)...

صرخت محاولاً النهوض:

- من أنت؟!

اقترب منى ثلاثتهم، ومال ذلك الذى ينتحل شخصيتى نحوى، وهو يقول مشفقًا:

- أنا الدكتور (حسنى)... انا أصلك.

أصلى؟! انتفضت كل ذرة فى كيانى، مع سماع إجابته، خاصة وأننى قد استعدت ذاكرتى كاملة دفعة واحدة...

ليست ذاكرة الخلايا الأوْلية، التى تعود إلى الدكتور (حسنى)، الذى صنعونى كنسخة منه، ولكن ذاكرتى أنا، بعد شعورى بالوعى، عندما اكتمل تكوينى المعملى...

أسلوب النمو الفائق، الذى استخدموه لإنعاش خلايا (حسنى)، واستنساخى كنسخة ناضجة، طبق الأصل منه، فى زمن قصير، جعلنى أنهض متصورًا أننى هو، حتى إننى ارتديت بعض ملابسه، التى يتركها احتياطيًا فى المعمل، وأخذت مفاتيح سيارته، وقدت السيارة إلى منزله...

ولكنهم اطبقوا علىَّ هناك، وأعادونى إلى المعمل، وأجروا لى جراحة صغيرة، لست أدرى سببها بالضبط...

وعندما أفقت، هربت مرة أخرى، و...

فقدت الذاكرة...

" خلاياك تنهار... " ...

قالها أصلى فى أسى، وهو يتطلع إلىَّ مشفقًا، قبل أن يضيف فى ألم:

- يبدو أن الطبيعة ترفض ما نفعله، وليس القانون وحده...

صحيح أنك نسخة طبق الأصل منى، ولكن تأثير النمو الفائق مؤقت



للأسف... خلاياك ستنهار كلها، حتى يذوب جسدك، كما لو كان قطعة من الثلج، تركت فى طقس ساخن...

أدركت عندئذ لماذا عجزت عن النهوض...

لقد بدأ جسدى يذوب بالفعل...

ولم تعد هناك فائدة من استعادة ذكرياتى..

أو حتى ذكريات الدكتور (حسنى)...

فذاكرتى مثل جسدى...

ستذوب...

بدأت الرؤيا تتشوّش أمامى، إلا أنها لم تمنعنى من رؤية الرجال الثلاثة، وهم يتطلّعون إلىَّ بكل الأسف والألم والندم، وأنا أذوب أمامهم، تمامًا كما وصف الدكتور (حسنى) الأصلى الأمر...

كقطعة ثلج، فى طقس دافئ...

وآخر ما حملته ذاكرتى، هو صوت الدكتور (حسنى)، وهو يغمغم:

- أنا حقًا آسف... اغفر لى.

ثم ذاب كل شىء...

تمامًا.

• • •

## براءة الأطفال فى عينيه...

- براءة الأطفال فى عينيه...

"يالها من مدينة صغيرة"...

غمغم (وحيد) بالعبارة فى ضجر، وهو يجوب شوارع تلك المدينة الصغيرة، من مدن صعيد (مصر)...

كان قد انتدب إلى هناك، فى مهمة تفتيش محدودة، المفترض أن تستغرق أسبوعًا واحدًا، ولولا بدل الانتقال الكبير، الذى منحته إياه الشركة، مقابل هذا، لما دفع نفسه دفعًا إلى السفر، إلى تلك المدينة الصغيرة، من مدن صعيد (مصر)، فى منتصف شهر يوليو، حيث تبلغ حرارة الطقس مداها...

وأوّل ما فعله، عندما وصل إلى تلك المدينة، هو أن بحث عن مكان مناسب، يمكنه قضاء هذه الأيام السبعة فيه...

ولأنها مدينة صغيرة، لم يجد بها سوى فندقين فحسب...

أحد الفندقين كان أشبه بالبنسيونات القديمة، تشم فور دخوله رائحة الزمن، ويزعجك ضوءه الخافت، وتثير حفيظتك أبسطته القديمة، وأثاثه الذى يعود إلى عشرين عامًا على الأقل...

أما الفندق الآخر، فقد بدا أكثر حداثة، وأكثر نظافة، والإضاءة فيه ساطعة مريحة...

الذى أدهشه بحق، هو أن سعر الإقامة فى الفندقين كانت متقاربة للغاية، حتى إنه أبدى دهشته هذه، لموظف الفندق الأفضل، فتردَّد الرجل لحظة، ثم أجابه بابتسامة عريضة، بدا من الواضح أنه يخفى بها شيئًا ما:

- كل سائح له ما يفضله.



لم يشعر أبدًا أنها مدينة سياحية، تستحق مثل هذا القول، إلا أنه افترض أن بعض السائحين ربما يقضون ليلتهم فى تلك البلدة، ثم يستقلون إحدى سيارات الأجرة، إلى المدينة السياحية الكبيرة، التى تبعد عنها نصف الساعة فحسب، توفيرًا للنفقات...

ودون أن يطرح مزيدًا من الأسئلة، استأجر حجرة فى الفندق الأحدث...

ولقد أدهشه كم تحوى حجرته من وسائل الترفيه، على الرغم من رخص إيجارها..

كانت حجرة كبيرة، تطل على الساحة الرئيسية للمدينة، بها سرير عريض، ودولاب كبير، وتلفاز ممتاز، وجهاز تكييف هواء..

هزَّ كتفيه، وهو يغتسل، ويستبدل ثياب السفر، ثم خرج ليؤدى عمله، فى التفتيش الروتينى، على فرع شركته هناك.

قضى نصف اليوم فى أعمال روتينية معتادة، ثم بدأ يلملم أوراقه فى حقيبته الجلدية القديمة، التى يعتز بها كثيرًا، وبينما يستعد للانصراف، سأله سكرتير فرع الشركة مبتسمًا:

- إن لم يكن لديك مكان للإقامة، فسيسعدنى استضافتك فى منزلى.

شكره فى شىء من الصرامة، وهو يقول:

- لقد استأجرت حجرة فى فندق (.....)...

فوجئ بوجه السكرتير يمتقع لحظة، قبل أن يسأله فى تردد:

- ولماذا هذا الفندق بالذات؟!

أجابه بنفس الصرامة، التى بدت وكأنها أسلوبه المعتاد فى الحديث:

- ليست أمامى خيارات كثيرة... إما هو، أو الفندق الآخر القديم، المطل على السوق.

تردَّد السكرتير لحظة، ثم قال فى حذر:

- الخيار الثالث أن أستضيفك فى منزلى.

كان يكره أن يتعامل بهذا الود، مع موظفى مكتب أتى للتفتيش عليهم، فقال فى صرامة شديدة، وهو يحمل حقيبته وينصرف:

- كلا... الفندق أفضل.

كان الطقس قد اعتدل مع نهاية النهار، فقرَّر أن يتجول قليلاً فى المدينة، وكم أدهشه أنها مدينة صغيرة للغاية، أمكنه أن يقطع كل شوارعها تقريبًا، خلال ساعتين فحسب، قبل أن يصيبه الملل، ويقرر العودة إلى الفندق، والحصول على قدر واف من النوم...

وعندما وصل إلى الفندق، وطلب مفتاح حجرته، ناوله إياه موظف الاستقبال نفسه، والذى لم ينه نوبته بعد لسبب ما، وهو يتطلَّع إليه فى قلق حذر..

تجاهل كل هذا، وافترض أن الجميع، فى بلدة صغيرة كهذه، يعرفون بعضهم البعض حتمًا، ووجود شخص غريب بينهم، سيثير تساؤلاتهم وقلقهم بالتأكيد..

وفى حجرته، ألقى حقيبته الجلدية على مقعد مجاور للباب، وألقى ثيابه على مقعد آخر، واغتسل مرة ثانية، ثم رقد على فراشه، يشاهد برامج التلفاز بعض الوقت، قبل أن يغلبه النوم، و...

" عمو... هل تلعب معنا... "...

أطفال صغار أبرياء، يحيطون به، وعلى وجوههم ابتسامات كبيرة،



وبين يدى أحدهم كرة صغيرة، يتناسب حجمها مع ضآلة جسده، يلوِّح له بها، داخل حديقة واسعة غنَّاء...

" لم ألعب الكرة منذ زمن طويل... "...

أجاب الطفل مبتسمًا، فمنحه الطفل ابتسامة تفيض بالبراءة، وهو يقول:

- هل يزعجك أن نلعب إذن؟!

شعر براحة شديدة، مع ابتسامة الطفل، فلوح بيده، قائلاً:

- على العكس... ستسعدنى مشاهدتكم، وأنتم تلعبون وتمرحون...

" شكرًا يا عمو... "...

قالها الصغير، وهو يعدو نحو رفاقه الصغار، الذين راحوا يتبادلون الكرة، ويمرحون، ويلعبون، وارتفعت ضحكاتهم البريئة فى المكان، وكان لها صدى جميل فى أذنيه، وصدى أجمل فى قلبه، و...

" حقيبتك يا عمو... "...

التفت إلى ذلك الطفل، الواقف إلى جواره، يناوله حقيبته الجلدية القديمة..

وانتفض قلبه بين ضلوعه فى قوة...

فالطفل كان يحمل الحقيبة، ويمد يديه الصغيرتين بها إليه، وهو يبتسم ابتسامة كلها براءة، فيما عدا أنه كان... يحترق...

نعم... كانت النيران تشتعل فى ثيابه، وتلتهم جسده الصغير، وإن لم يبد عليه أدنى أثر للألم، و...

وانتفض جسده كله، وهو يهب من نومه، صارخًا:

- لا... لا... النار.

انتبه فجأة إلى أنه نائم فى فراشه، وأن كل هذا لم يكن سوى كابوس، فبسمل وحوقل، ومد يده ليلتقط كوب ماء من جواره، و...

وارتطمت يده بشىء ما، أسقطه الارتطام أرضًا بصوت مسموع...

أسرع يشعل المصباح الصغير، المجاور للفراش، وانحنى يلقى نظرة على ذلك الشىء الذى أسقطه، واتسعت عيناه عن آخرهما...

لقد كان ذلك الشىء حقيبته...

حقيبته الجلدية القديمة، التى يعتز بها كثيرًا...

ولثوان، ظلَّ يحدّق فيها ذاهلاً...

ما الذى أتى بها على فراشه؟!

إنه يذكر جيدًا، أنه ألقاها على أقرب مقعد للباب فور دخوله!!

ليس لديه أدنى شك فى هذا!!

حاول أن يجد تفسيرًا للموقف، إلا أن الحقيبة التى يراها ملقاة على الأرض أمامه، منعت عقله من إيجاد أى تفسير...

ترى هل سار وهو نائم، وأحضرها إلى فراشه، دون أن يدرى؟!..

هل؟!

كانت ساقاه ترتجفان، عندما هبط من فراشه، والتقط الحقيبة، وأعادها إلى المقعد المجاور للباب، ثم ألقى نظرة على ساعته، التى أشارت عقاربها إلى الثانية والنصف صباحًا، وغمغم فى عصبية:

- ماذا أصابك؟! إنه كابوس... مجرد كابوس.

عاود الاستلقاء على الفراش، وتناول جرعة ماء، ثم أغلق عينيه،



محاولاً العودة إلى النوم...

"عمو... هل تلعب معنا؟!..."

نفس الطفل الصغير، يبتسم فى براءة، ويمد يده إليه بالكرة الصغيرة، ولكنه فى هذه المرة، غمغم فى اقتضاب:

- كلا...

ظلَّ الطفل يبتسم فى براءة، وهو يسأله:

- وهل يزعجك أن نلعب؟

صاح فيه فى حدة:

- العبوا كما تريدون، لا شأن لكم بى.

تلاشت ابتسامة الطفل، وانقلبت ملامحه إلى حزن شديد، وترك باقى الأطفال لعبهم، وتراصوا خلفه...

ثم بدأ الكل فى البكاء، فى آن واحد...

وتراجع هو فى رعب...

فالدموع المنهمرة من عيونهم، لم تكن دموعًا...

كانت قطعًا صغيرة من اللهب، تتساقط من أعينهم الواسعة البريئة؛ لتشعل الأرض من حولهم... وراحت رقعة النيران تتسع من حولهم...

وتتسع ...

وتتسع...

ومرة أخرى، انتفض جسده فى عنف، واستيقظ بحركة حادة...

ومرة أخرى، لدهشته وذعره، ارتطم بحقيبته القديمة...

وفى هذه المرة، صرخ:

- لا... مستحيل!

أخذ جسده يرتجف فى شدة، وهو يحدّق فى الحقيبة الملقاة إلى جوار فراشه، قبل أن يغمغم مرتجفًا:

- أسير نائمًا حتمًا... لا ريب أن هذا ما حدث.

كان جسده كله يرتجف، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه، وهو يحمل الحقيبة، ويعيدها إلى المقعد المجاور للباب، وهو يغمغم:

- الإرهاق... هو الإرهاق حتمًا... سمعت أن الانسان يسير أثناء نومه، عندما يصبح فريسة للإرهاق الشديد.

كانت عقارب ساعته تشير إلى الثالثة والنصف، أى أنه لم يستغرق فى نومه الثانى سوى ساعة واحدة، فوضع جسده على الفراش، وهو يواصل غمغمته:

- الكوابيس لا تنتاب المرء، إلا عندما يكون مرهقًا، أو يتناول وجبة دسمة قبل النوم... ولو أننى حصرت أفكارى فى شىء جميل، لن تهاجمنى الكوابيس مرة أخرى حتمًا.

راح يعتصر عقله، محاولا استرجاع كل حدث جميل مفرح، مرّ به فى حياته، ولكن هذا الجهد أرهقه بشدة، فأسبل جفنيه، بعد أن تجاوزت عقارب الساعة الرابعة، و....

نام...

"عمو... هل تلعب معنا... "..

لم يصدق نفسه هذه المرة...

إنه الطفل الصغير ذاته، يمد إليه يده بكرته الملوّنة، التى تتناسب



مع ضآلته، ويبتسم نفس تلك الابتسامة البرئية...

"اذهب عنى... لا أريد أن أراك... " ...

تراجع الطفل فى ذعر غاضب، وفوجئ هو بأن كل الأطفال قد التفوا حوله، وكلهم يقولون فى آن واحد، وبأسلوب حمل كل براءتهم:

- أنت سيئ يا عمو... مثل كل من سبقوك.

ثم فجأة، اشتعلت أجسادهم كلها دفعة واحدة...

وهبّ هو من فراشه مذعورًا...

فى هذه المرة، اختلف الأمر...

لم يرتطم بحقيبته القديمة، التى ظلّت مستقرة على ذلك المقعد، المجاور للباب...

وفى حركة واحدة، اعتدل يجلس على طرف فراشه، وهو يبسمل ويحوقل مرة أخرى، ولهث بشدة، وهو يغمغم:

- ما الذى يحدث هنا؟! ما الذى يحدث فى هذه الحجرة؟!

لم يكن حتى قد انتهى من كلمته الأخيرة، عندما تدحرج ذلك الجسم الصغير، من أسفل الفراش، وعبر بين قدميه مباشرة...

وبكل رعب الدنيا، اتسعت عيناه...

لقد كان كرة...

نفس الكرة الملوّنة الصغيرة، التى يمد الطفل يديه بها إليه، فى كل مرة...

حدّق فيها فى ذهول، مغمغمًا:

- أمازلت نائمًا؟! أهذا جزء من كابوسى؟!

كان كيانه كله يرتجف، عندما انحنى يلمس الكرة، ثم يرتد بكل عنف الدنيا...

إنها كرة حقيقية...

ولقد شعر بملمسها الجلدى الرقيق..

إنها حقيقية...

وهذا مستحيل!

مع ذهوله ورعبه، تناهى إلى مسامعه صوت ضحكات طفولية بريئة، أسفل فراشه...

وعلى الرغم من الرعب، الذى سيطر على كيانه كله، مال يلقى نظرة أسفل الفراش، قبل أن يرتد بمنتهى العنف، على النحو الذى أسقطه أرضًا...

فأسفل فراشه مباشرة، كانت تلك الحديقة الغنّاء الواسعة، والأطفال يلعبون ويمرحون فيها...

وفى هدوء، اقترب منه ذلك الطفل المشتعل، وهو يبتسم ابتسامته البريئة، ويمد يديه الصغيرتين إليه، قائلا:

- الكرة لو سمحت يا عمو...

وهنا أطلق هو صرخة رعب مدوية، وقفز واقفًا على قدميه، واندفع يعدو نحو باب الحجرة يفتحه، ويعدو فى ممر الفندق، وهو يصرخ:

ويصرخ...

ويصرخ...

" لابد من إغلاق هذا الفندق" ...



قالها مدير شرطة السياحة فى صرامة، فأجابه صاحب الفندق مرتجفًا:

- لقد كلفنا ثروة.

أجابه مدير شرطة السياحة فى غضب:

- ولكنها سابع حالة انهيار عصبى، يصاب بها نزيل فى فندقك، بعد أوّل ليلة يقضيها فيه، وسرعان ما ستنهار سمعة الفندق، ولن يستأجر أحد حجرة واحدة فيه.

غمغم صاحب الفندق:

- ولكن...

قاطعه مدير شرطة السياحة بكل توتره:

- كان من الخطأ أن تبنى فندقك، فى موضع ملجأ الأيتام، الذى احترق عن آخره منذ عامين، ولقى نصف أطفاله مصرعهم ... من الخطأ تمامًا.

فى هذه المرة، أحنى صاحب الفندق رأسه، ولم يعترض...

أبدًا.

• • •

# البيت الجديد...

- البيت الجديد...

" ألف مبروك البيت الجديد..."

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى سمسار المنطقة، وهو يفتح باب ذلك المنزل، فى الطابق العاشر من البناية الجديدة، المطلة على بحر (الإسكندرية) الساحر، ويشير بيده إلى (عدلى) وزوجته (لبنى)، مستطردًا:

- إنه صفقة العمر، بالنسبة لزوجين جديدين مثلكما.

تناول منه (عدلى) المفتاح، ونقده سمسرته المتفق عليها، وهو يبتسم فى سعادة:

- إنه صفقة رائعة بحق... ومن حسن حظنا أن فزنا بها.

بدت (لبنى) مبهورة بالأثاث، الذى يتناسب مع ذوقها، وهى تقول فى سعادة:

- لم نصدق أنفسنا فى الواقع، عندما قرأنا الإعلان... منزل كامل التأثيث، بسعر شقة عادية!! ويطل مباشرة على البحر أيضًا !! كم نحن محظوظين أن سبقنا غيرنا إليه.

غمغم السمسار، وهو يحافظ على ابتسامته فى صعوبة:

- لكل قدره.

أدار (عدلى) بصره فى الأثاث الجديد، الذى بدا وكأن أحدًا لم يستخدمه، قبل أن يقول:

- كم يدهشنى أن يتخلى أحدهم عن منزل كهذا، وبكل أثاثه ومحتوياته.

أسرع السمسار يقول:

- لم يكن يتوقع الحصول على موافقة الهجرة بهذه السرعة.



أطلقت (لبنى) ضحكة قصيرة، وقالت:

- عظيم... هو حصل على ما أراد، ونحن فزنا بما أردنا.

أومأ السمسار برأسه، وهو يغمغم مكررًا:

- لكل قدره.

ثم استعاد صوته درجته الطبيعية، وهو يضيف:

- هيا... استمتعا ببيتكما الجديد.

قالها، وأسرع ينصرف، تاركا الزوجين السعيدين خلفه، وهما يواصلان انبهارهما ببيتهما الجديد الأنيق...

وعلى الرغم من أن كل شىء كان نظيفًا مرتبًا، فقد استغرقهما بعض الوقت، فى إفراغ حقائبهما، وترتيب كل شىء فى موضعه، حتى مالت الشمس إلى الغروب، فغمغم (عدلى) فى إرهاق:

- يا إلهى! أشعر برغبة عارمة فى النوم.

ألقت (لبنى) نظرة على ساعة يدها، وهى تقول معترضة:

- إنها لم تبلغ الثامنة بعد.

تحسس شعرها الناعم الطويل، وهو يبتسم فى إرهاق، قائلا:

- ساعة واحدة فقط، وبعدها سنسهر سويًا فى الشرفة، ونستمتع بنسيم البحر العليل.

لوحت بسبابتها، وهو يتجه إلى حجرة النوم، قائلة:

- ساعة واحدة.... لن أمنحك أكثر من هذا.

استغرق هو فى نوم عميق، فى حين انهمكت هى فى تنظيم المطبخ، وإعادة غسل الأطباق والأكواب، وبدأت تعد بعض الشاى الأخضر الذى

يحبه، استعدادًا إلى إيقاظه... وبينما تعد الشاى، شعرت بحركة من خلفها، فالتفتت إلى باب المطبخ، ولمحت ظلًا يتجاوزه، متجهًا إلى الصالة، فهتفت مبتسمة:

- حبيبى... هل استيقظت.

لم تتلق منه جوابًا، فوضعت كوبى الشاى على صينية معدنية أنيقة، حملتها إلى الصالة، و... وتوقفت فى دهشة...

فالصالة كانت خالية، ولا أثر لزوجها فيها، فى حين كانت أستار مدخل الشرفة تهفهف، مع نسيم البحر، فابتسمت قائلة:

- أنت على حق... سنتناول الشاى فى الشرفة.

اتجهت بالصينية نحو الشرفة، إلا أنها أيضًا كانت خالية، فالتقى حاجباها، وهى تغمغم فى قلق:

- (عدلى).... أين أنت؟!

مرة أخرى لم تتلق منه جوابًا، فوضعت الصينية الصغيرة فى الشرفة، وأسرعت إلى حجرة النوم، لتقف عند بابها ذاهلة...

لقد كان (عدلى) مستغرقًا فى نوم عميق، على نحو أثار فزعها...

من ذلك الذى مرَّ بالمطبخ إذن؟!

لقد لمحت طرفه فى وضوح...

من كان؟!

أسرعت توقظ زوجها، وتسأله فى توتر:

- (عدلى)... هل استيقظت منذ قليل؟!

فرك عينيه فى إرهاق ناعس، وهو يغمغم:



- هل مرَّت الساعة بهذه السرعة؟!

كادت تهم بإخباره عما رأته، إلا أنها خشيت أن تكون قد توهمت شيئًا، فآثرت الصمت، وهى تغمغم فى عصبية، لم تستطع كبحها:

- لقد أعددت الشاى فى الشرفة.

كان (عدلى) يبدو مستمتعًا بتناول الشاى فى الشرفة، فى حين ظلَّت هى شاردة بعض الوقت، قبل أن تقول فجأة فى حزم:

- أوَّل ما علينا فى الصباح، هو تغيير أقفال المنزل.

ابتسم، مجيبًا:

- بالتأكيد.

وعاد يرتشف الشاى بنفس الاستمتاع، دون أن تعلِّق هى...

وبعد منتصف الليل بقليل، أوى كلاهما إلى الفراش، واستغرق (عدلى) مرة أخرى فى نومه العميق، فى حين ظلت هى مستيقظة فى قلق، حتى الرابعة صباحًا، فلما لم يحدث شيئًا، استغرقت فى النوم بدورها...

وعندما استيقظت، كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا، ولم يكن (عدلى) يرقد إلى جوارها، فهتفت باسمه مرتين أو ثلاثًا، إلا أنها لم تتلق جوابًا، فنهضت فى قلق، واتجهت إلى الصالة، وهى تواصل النداء باسمه، حتى لمحته...

كان يقف فى الشرفة المفتوحة، يحدق فى البحر الممتد أمامه، وممسكًا بحاجز الشرفة فى قوة، جعلتها تتجه نحوه، وهى تقول فى قلق:

- حبيبى... هل استيقظت مبكرًا؟!

لم تتلق منه جوابًا، مما زاد من قلقها، وجعلها تهتف:

- (عدلى).

وفجأة، ومع نهاية هتافها، رأته يمسك حاجز الشرفة بكل قوته، ثم يرفع نفسه عن الأرض، ويدفع جسده إلى الأمام، و...

ويهوى...

من الطابق العاشر...

أطلقت صرخة رعب وارتياع، وهى تعدو نحو الشرفة، وقلبها يخفق فى قوة، لم تعدها فى نفسها من قبل، وألقت نظرة على الشارع...

ثم أطلقت شهقة عنيفة...

كل شىء فى الشارع كان على ما يرام...

السيارات تسير فى انتظام...

المارة يتحركون فى هدوء...

ولا يوجد أثر لزوجها !!

أى أثر؟!

"حبيبتى... لقد عدت..." ...

أطلقت صرخة فزعة مذعورة، عندما سمعت صوت (عدلى) من خلفها، والتفتت بحركة حادة، أفقدتها توازنها، فسقطت بين ذراعيه، وحدقت فى وجهه بذعر، جعله يقول مضطربًا:

- إنه أنا !! ماذا أصابك؟!

هتفت به فى رعب:

- أين كنت؟!

أجابها فى حيرة متوترة:

- ذهبت لإحضار من يبدل أقفال البيت... أليس هذا ما طلبته؟



أشارت إلى الشرفة، وهى ترتجف فى شدة، قائلة:

- ولكننى رأيتك تـ....

لم تتم عبارتها، وإنما حدقت فى وجهه بشدة، وأجهشت بالبكاء على صدره، فضمها إليه فى حنان، وهو يقول:

- حبيبتى... غبت نصف الساعة فحسب، ولكننى أعدك ألا أتركك وحدك مرة ثانية أبدًا.

ظلت تبكى على صدره فى حرارة، وجسدها الضئيل يرتجف بين ذراعيه، فقبل جبينها، وهو يقول فى حنان مشفق:

- هيا... ارتاحى قليلًا فى حجرتنا، حتى ننتهى من تغيير الأقفال.

ظل جسدها يرتجف حتى وهى راقدة فى فراشها، وتركت باب الحجرة مفتوحًا، حتى تأتنس بصوت زوجها، وهو يتحدث مع النجار، الذى أتى لتغيير الأقفال...

كان النجار يقول فى حماس:

- مبارك هذا البيت الجديد يا أستاذ.... من حسن حظك أن الورثة قرروا بيعه أخيرًا.

ارتجف جسدها، عندما سمعت كلمة (الورثة) هذه، فقفزت من فراشها، ترهف سمعها أكثر عند الباب، و(عدلى) يقول فى دهشة:

- ورثة؟! السمسار أخبرنا أن صاحب المنزل السابق هاجر!!

ضحك النجار، وهو يقول:

- نعم... هاجر... إلى الدار الآخرة.

ارتجف جسدها مرة أخرى فى قوة أكبر، فى نفس الوقت، الذى

تساءل فيه (عدلى):

- ماذا تعنى؟! هل مات؟!

أجابه الرجل، دون أن يلتفت إليه، وهو منهمك فى عمله:

- انتحر يا أستاذ... كان يعانى من بعض المتاعب الصحية، ثم أخبره الأطباء أنه مصاب بورم خبيث فى المخ، وأنه سيموت بعد أقل من عام، فلم يحتمل الصدمة، وانتحر.

غمغمت فى رعب، وهى تحتمى بباب حجرتها:

- لا تقل إنه ألقى نفسه من الشرفة.

لم يسمعها الرجل، ولكنه أكمل، وهو ينهى عمله:

- ذات صباح، ألقى نفسه من الطابق العاشر... كانت صدمة لنا جميعًا.

اتسعت عيناها عن آخرهما، وراح جسدها يرتجف فى شدة، وعجزت ساقاها عن حملها، فألقت جسدها على طرف فراشها، وراحت تلهث فى انفعال عجيب، حتى تخيَّل إليها أن قلبها سيتوقف من شدة الرعب...

" حبيبتى... لقد انتهينا...."

قالها (عدلى) بابتسامة كبيرة، وهو يدلف إلى الحجرة، فأطلقت صرخة فزع قوية، وقفزت من فراشها، على نحو جعله يندفع نحوها، هاتفًا فى جزع:

- ماذا حدث؟! ماذا أصابك؟!

أخبرته هذه المرة بكل ما خبرته، خلال الساعات القليلة الماضية، واستمع هو إليها فى ذهول، قبل أن يجلس إلى جوارها على طرف الفراش، ويغمغم مبهوتًا:

- لهذا كانت قيمة البيت وأثاثه منخفضة.



تشبَّثت به، وهى تهتف فى ضراعة مذعورة:

- لن يمكننى الإقامة هنا ليلة واحدة... ليس مع هذا الفزع.

ضمها إليه، وهو يقول:

- ولن أسمح بهذا أيضًا.

وصمت لحظة مفكِّرًا، قبل أن يضيف:

- سأعرض البيت ومحتوياته للبيع، وسنعود للإقامة عند والدتى مؤقتا؛ حتى يتم بيع البيت.

تشبَّثت به أكثر، وهى تقول:

- أريد الرحيل الآن... أرجوك.

ربَّت عليها فى حنان، وهو يومئ برأسه، قائلًا:

- أعدِّى الحقائب، وسأقوم ببعض الاتصالات، ثم نرحل فورًا.

راحت تعد حقائبها على عجل، غير مصدِّقة أنهما لم يقضيا سوى ليلة واحدة، فى البيت الجديد، وما إن انتهت من إعدادها على عجل، حتى أسرعت إلى الصالة، هاتفة..

ارتدت فى رعب، عندما شاهدت زوجها (عدلى) يرتكن إلى سور الشرفة، وكأنما يلقى نظرة أخيرة على البحر...

ولم يكن هذا مبعث رعبها...

لقد كان ذلك الطيف، الذعر عبر الصالة أمام عينيها، متجهًا نحو زوجها مباشرة...

وبكل رعب الدنيا، صرخت:

- (عدلى).

التفت إليها فى توتر، وارتطم بصره بذلك الطيف، فتراجع مذعورًا، وهو يهتف:

- رباه !... ما هذا الـ...

مع تراجعه، ارتطم جسده بسور الشرفة فى قوة، واندفع الطيف نحوه، فمال إلى الخلف بحركة غريزية، وهو يصرخ:

- لا... ابتعد عنى.

وانطلقت من حلق (لبنى) شهقة رعب بلا حدود، عندما اختل توازن (عدلى)، وتراجع جسده خارج الشرفة، وراح يضرب بذراعيه فى الهواء، محاولًا التشبّث بشىء...

أى شىء...

ثم خيّل إليها أن قلبها قد توقف عن النبض، عندما هوى جسده خارج الشرفة، وسمعته يطلق صرخة هائلة، وهو يهوى، حتى صك مسامعها من بعيد، صوت ارتطامه بالأرض، ممتزجًا بصرير إطارات السيارات، وأبواقها، وصرخات المارة...

وبينما كان جسدها كله يرتجف وينتفض، بكل الرعب، استدار ذلك الطيف، واندفع نحوها، وهى تتراجع، وتصرخ...

وتصرخ...

وتصرخ...

فى البيت الجديد.

• • •



# زمن العجائب...

أيام المماليك... يالها من أيام...

جالت الفكرة للمرة الألف فى رأس (مالك)، وهو يجلس فى معمله الصغير، فى كلية علوم (القاهرة)...

كان يضع اللمسات الأخيرة لاختراع، سيقلب وجه العلم رأسًا على عقب...

آلة الزمن...

ليست تلك التى اخترعها (تشيرنوبروف) الروسى، عام 1997م، والتى اعتمدت على المجالات الكهرومغنطيسية...

فآلة زمن (تشيرنوبروف) كانت محدودة للغاية...

إنها تنقل أجسامًا جامدة، من قطعة واحدة، وإلى المستقبل فحسب ×...

أما آلته، فهى آلة زمن حقيقية...

آلة تشبه ما تحدث عنه ( هـ. ج. ويلز)، فى رائعته (آلة الزمن)...

آلة يمكنها أن تنقل بشريًا، عبر الزمان والمكان...

وإلى الماضى والمستقبل معًا...

آلته هذه ستصبح معجزة القرن العشرين بلا منازع...

بل هى معجزة كل العصور...

ولن يربح منها جائزة (نوبل) فى العلوم فحسب، ولكنه سيربح المليارات أيضًا، من بيعها لدول العالم، التى ستتنافس لامتلاك أخطر سلاح فى التاريخ كله...

بل هو سلاح التاريخ كله بالفعل...



يكفى أنها تستطيع نقلك إلى أى عصر تشاء...

وأى مكان تشاء... بامتلاكها، ستستطيع أن تتحكَم فى الزمن وحده، ولكن فى التاريخ أيضًا...

ويالها من قوة جبَارة...

ولقد صنعها...

واختبرها...

وتيقن من نجاحها...

الشمبانزى الذى أرسله يومًا واحدًا إلى الماضى، ظهر فى معمله، قبل أن يرسله بيوم كامل...

وفى تمام الصحة والعافية...

واليوم سيثبت نجاحها، فى نقل البشر عبر الزمن...

سينقل نفسه، إلى العصر الذى حلم بالسفر إليه...

عصر المماليك...

أغلق عينيه، وهو يتصوَر نفسه، وقد عاد إلى عصر المماليك، وأخبرهم عن مستقبلهم، الذى هو تاريخ بالنسبة إليه...

سيبهرهم هذا حتمًا...

بل سيذهلهم...

راح يتخيَلهم، وهم يحيطونه بحفاوة بالغة، خوفًا ورهبة، وينعمون عليه بالعطايا والهدايا، والجوارى الفاتنات الحسناوات...

وهزَ رأسه فى استمتاع، وهو يتخيَل النعيم، الذى سينعم به هناك...

وعندما فتح عينيه، كان الحماس يملأ نفسه، والانفعال يسيطر

على كيانه، حتى إنه ارتدى حلته الواقية فى سرعة، وراح يضبط آلة الزمن على عصر المماليك، فى نهايات القرن السادس عشر، وبالتحديد عام 1798م، وضغط أزرار الآلة فى حماس، ثم تشبّث بذلك المقعد الوثير داخلها، وأغلق عينيه فى قوة...

فى البداية، شعر بارتجاجات خفيفة، راحت تقوى، وتقوى، حتى أخذ جسده كله يرتج معها فى قوة...

ومن حوله، راحت عشرات الأضواء تختلط، وتتطاير من حوله...

كان يراها، حتى وهو مغلق العينين، كما لو أنها تتطاير فى عقله، وفى قلب كيانه...

ثم بدأت الارتجاجات تهدأ...

وتهدأ...

وتهدأ...

فتح عينيه فى حذر، ووجد نفسه غارقا فى لجة من الأضواء المختلفة، تحيط به من كل جانب، وقد اختفت جدران آلة الزمن تمامًا...

وكما هدأت الارتجاجات من قبل، راحت الأضواء تخفت...

وتخفت...

ومن خلفها بدت الشمس مشرقة، ثم راحت تتحرك فى سرعة نحو الغرب، حتى غابت فى الأفق، وساد الليل لثوان، عادت بعدها الشمس تشرق فى سرعة، وراح النهار والليل يتعاقبان فى لحظات، قبل أن تهدأ حركتهما ويقل تعاقبهما تدريجيا، ثم خيم الليل على المكان، وارتج جسده ارتجاجة عنيفة...

وتوقف فجأة...



ومع ذلك التوقف المفاجئ دار رأسه فى عنف...

وفقد الوعى...

لم يدر كم بقى فاقد الوعى، ولكنه، وعندما استعاد وعيه، كانت الشمس تتوسط السماء، وتلقى أشعتها الذهبية، على وجهه مباشرة...

وفى إرهاق شديد، نهض من مكانه، ووقف يترنح لحظات...

ثم اتسعت عيناه انبهارًا...

لقد كان يقف على سفح مطل على البحر، الذى رست بالقرب من شاطئه، عدة سفن كبيرة، ذات أشرعة متعددة، تشبه ذلك النموذج، الذى يضعه على أحد أرفف مكتبته الخاصة...

وخفق قلبه فى قوة...

فقد كان هذا يعنى أنه نجح...

لقد نقلته آلته إلى حيث أراد...

إلى زمن المماليك...

كانت آلة الزمن محشورة بين صخرتين كبيرتين، ولكن هذا لم يقلقه...

إنه يستطيع إدارتها، والعودة بها إلى زمنه، عندما يريد، ووقتما يريد...

والمكان الذى انحشرت فيه، هو مأمن جيد لها...

المهم الآن أن يبدأ خطته...

وأن يبهر المماليك بمعلوماته...

راح يسترجع كل ما حفظه عن ظهر قلب، عن تلك الحقبة من

التاريخ، وهو ينزع بدلته الواقية، ويطويها فى عناية، ويضعها أسفل آلة الزمن، التى أحكم إغلاقها، وبدأ يسير باحثًا عن أوّل من يلتقى به...

ولكنه فجأة، سمع صوتًا أشبه بالرعد...

ثم صفيرًا حادًا يشق الهواء...

وانفجرت قنبلة ما، على مسافة عدة أمتار منه...

وبكل الرعب، قفز من مكانه...

قنابل؟!

مستحيل !!

عصر المماليك لم يعرف القنابل...

ولا المدافع...

اتسعت عيناه فجأة عن آخرهما، عندما انتبه إلى حقيقة غابت عن ذهنه، وهو يختار هذا التاريخ بالتحديد...

1798م...

إنه تاريخ بدء الحملة الفرنسية على (مصر) !!!

والحملة فاجأت المماليك بالمدافع...

كيف غابت عنه هذه الحقيقة؟!

كيف؟!

كان يهم بالتراجع؛ للبحث عن وسيلة لحماية آلة الزمن...

أو للانتقال بها إلى حقبة أخرى على الأقل...

عندما ظهر ذلك الفارس أمامه بغتة..

كان من الواضح، من ثيابه وعتاده، أنه من فرسان المماليك،



يمتطى صهوة جواد عربى أصيل، أطلق صهيلًا قويًا عند رؤيته، وضرب الهواء بقائميه الأماميين، فى نفس اللحظة، التى استل فيها الفارس سيفه، ولكز جواده...

وانقض عليه...

وبكل ذعره وهلعه هتف:

- أنا صديق... لست عدوًا.

كان من الواضح أن ذلك الفارس لم يفهم حرفًا واحدًا مما قاله؛ فلقد واصل انقضاضه عليه، وهو يلوّح بسيفه فى الهواء...

ومع الانقضاضة، لم يجد أمامه سوى أن يجرى محاولًا الفرار...

وبكل قوته...

ولقد وضع هذا موضع التنفيذ فورًا، وانطلق بكل قوته يجرى...

ويجرى...

ويجرى...

ولكن وقع قوائم جواد الفارس كان يقترب منه فى سرعة، وسمع من خلفه مباشرة صرخة قتالية قوية، قبل أن تهوى ضربة عنيفة على رأسه، ويسقط فاقد الوعى...

استيقظ بغتة، على صرخة ألم قوية، انتبه فى سرعة إلى أنها انطلقت من حلقه هو...

ولقد هوت ضربة سوط قوية على ظهره، جعلته يطلق صرخة ثانية:

- ماذا تفعلون؟! أنا صديق.

هوى السوط على ظهره للمرة الثالثة، مع ظهور شخص ضخم الجثة أمامه، له شارب كثيف، وحاجبان كثان، انعقدا فى صرامة، وهو يصرخ فى وجهه بكلمات ما...

كلمات لم يفهم منها حرفًا واحدًا...

وبكل ذعره وألمه، غمغم:

- رباه! اللغة! فاتنى هذا أيضًا!!

كان من الواضح أن صاحب الحاجبين الكثين لم يفهم كلماته، فصرخ فيه مرة أخرى، فى شراسة مخيفة...

كل ما فهمه هذه المرة، هو انه يتحدث عن الفرنسيين...

فاللغة فى زمن المماليك، لم تكن نفس اللغة، التى يتحدثها فى زمنه...

لهذا لم يفهموا كلماته...

ولم يفهم كلماتهم...

كيف فاته هذا أيضًا؟!

كيف؟!

هوت ضربة سوط رابعة على ظهره، والرجل يصرخ فى وجهه بشراسة أكبر...

وفى هذه المرة أيضًا، كان يسأله عن الفرنسيين...

ويالرعبه وذعره...

لغته، التى لم يفهموها، جعلتهم، مع ملابسه الغريبة، يتصوَّرون أنه من الفرنسيين، الذين يحاولون غزوهم...



وهم يحاولون إجباره على الاعتراف بما لديه...

حاول أن يستعيد معلوماته السابقة، عن اللغة الفرنسية، إلا أن ضربة سوط خامسة، جعلته يطلق صرخة ألم رهيبة:

- أنا مصرى... أنا منكم.

أمسك صاحب الحاجبين الكثين شعره، فى قسوة بالغة، وصرخ فى وجهه فى وحشية عصبية، فهتف مذعورًا:

- صدقونى... أنا صديق... لقد اتيت أعرض عليكم خدماتى.

هوى صاحب الحاجبين الكثين على وجهه بصفعة قوية، وراح يصرخ فيه، فى وحشية أكثر، فبكى فى مرارة، وهو يقول:

- أنا صديق...

تراجع صاحب الحاجبين الكثين، وقلب شفتيه فى امتعاض، وكأنما يئس منه، فانهار رأسه على صدره، وهو يغمغم، من وسط بكائه:

- أرجوكم... صدقونى.

أطلق صاحب الحاجبين الكثين زفرة عصبية، ثم أشار إلى رجل آخر، عارى الصدر، مفتول العضلات، وتحدث إليه بتلك اللغة القديمة، ثم رفع يده؛ ليمرِّر سبَّابته على عنقه...

واتسعت عينا (مالك) فى رعب هائل..

لا يمكن أن يكون ما رآه صحيحًا !!

إنه يأمرهم بقطع رأسه...

وبكل رعبه، صرخ:

- لا... لا... وجودى سيفيدكم كثيرًا... أنا مصرى... مصرى مثلكم.

دفعه رجلان بمنتهى القسوة، وأجبراه على الركوع أمام كتلة من الخشب، فى حين حمل مفتول العضلات سيفه، وضغط الرجلان كتفى (مالك)؛ ليجبراه على وضع رأسه على تلك القطعة الخشبية، وهو يصرخ مرتجفًا:

- لست فرنسيًا... أنا قادم من المستقبل... يمكننى أن أريكم آلة الزمن... أنا مصرى مثلكم... مصرى مثلكم.

ورفع صاحب العضلات المفتولة سيفه...

وصرخ (مالك)...

وراح يصرخ...

ويصرخ...

ويصرخ...

ثم انقطعت صرخاته تمامًا...

وإلى الأبد.

• • •



# خلف الستار...

فرك (هانى) كفيه فى توتر، وهو يقف أمام موظف شئون الأفراد، فى الشركة التى تقدَّم إليها بطلب توظيف، والموظف يراجع أوراقه فى اهتمام، قبل أن يرفع عينيه، قائلًا فى صرامة غير مبرَّرة:

- الأوراق سليمة.

تنفس (هانى) الصعداء، ولكن الموظف استدرك فى سرعة:

- ولكن...

هتف به (هانى)، قبل أن يتم عبارته:

- ولكن ماذا؟!

مطَّ الموظف شفتيه، وأيضًا على نحو غير مبرَّر، وهو يكمل:

- تنقصنا أربع صور.

عاوده توتره، وهو يقول:

- يمكنى إحضارها صباح الغد.

هزَّ الموظف رأسه نفيًا، وقال فى صرامة:

- اليوم آخر موعد لتقديم الأوراق.

ألقى (هانى) نظرة شديدة التوتر على ساعته، قبل أن يقول متوسلًا:

- ألا يمكنك قبول الأوراق، ثم...

قاطعه الموظف، فى صرامة أكثر:

- لا يوجد (ثم)... إما أن تكتمل أوراقك اليوم، أو...

لم يتم عبارته، ولكن المعنى بدا شديد الوضوح...

سيخسر الوظيفة إن لم يحضر أربع صور، خلال ساعة واحدة.



" هناك استوديو تصوير قريب، يمكن أن يمنحك الصور فوريًا."...

قالها الموظف، وهو يزيح ملفه جانبًا، ويجذب إليه ملف موظف آخر...

بدأ (هانى) تحركه، للحاق بذلك الاستوديو، فهتف به الموظف، قبل أن يغادر المكان:

- المهم أن تعود قبل انتهاء الموعد، ولا تختفى مثل من سبقوك.

أجابه (هانى)، وهو يهرع خارج المكان:

- سأعود بإذن الله.

مطَّ الموظف شفتيه، وهو يراه يختفى خارج المكان، وغمغم:

- كلهم يقولون هذا.

وبدأ يفحص الملف الجديد، مضيفًا:

- ثم لا يعودون أبدًا.

فى نفس اللحظة التى نطقها، كان (هانى) يسير بأقصى سرعته، لبلوغ ذلك الاستوديو، قبل انتهاء موعد قبول الأوراق...

كان استوديو صغيرًا فقيرًا، ولكنه يضع على واجهته لافتة كبيرة، تقول: " صور شخصية فورية"..

استقبله فى الاستوديو رجل كهل، شديد النحول، أصلع الرأس تمامًا، فسأله بكل لهفته:

- هل يمكنك منحى أربع صور شخصية، خلال أقل من نصف ساعة؟!.

رمقه الكهل بنظرة شاملة، قبل أن يجيب فى هدوء:

- وفى أقل من ذلك.

ثم أشار إلى حجرة جانبية، وهو يضيف:

- ادخل هذه الحجرة.

اندفع (هانى) فى سرعة إلى تلك الحجرة، التى بدت أصغر من أن تصلح للتصوير، وإن وضعت فيها كاميرا تصوير قديمة، وكشافان متهالكان، مع ستار أسود، يغطى أحد جدرانها، وأمامه مقعد خشبى قديم، يواجه عدسة الكاميرا تمامًا...

وفى عصبية، قال (هانى):

- يفترض أن تكون خلفية الصورة بيضاء لا سوداء.

أجابه الكهل فى هدوء:

- سأستبدلها فورًا... انتظرنى.

تراجع مغلقًا الباب خلفه، على نحو أشعر (هانى) بالضيق من وجوده فى حجرة صغيرة قبيحة مغلقة، إلا أنه كتم مشاعره فى أعماقه، مقابل أن يحصل على صورة بالسرعة اللازمة...

وفى توتر شديد، جلس ينتظر عودة الكهل، وهو يلقى نظرة على ساعة يده، كل حين وآخر، قبل أن ينتبه إلى وجود ساعة صغيرة، معلقة على الجدار، فرفع عينيه إليها، و....

وشعر بدهشة شديدة...

فتلك الساعة على الجدار، لم تكن ساعة عادية...

لقد كانت عقاربها تسير على نحو عكسى...



لم تكن تتحرك إلى الأمام، بل إلى الخلف...

راقبها بعض الوقت، وتزايدت حيرته...

كانت تسير فى إيقاع منتظم تمامًا...

ولكن على نحو عكسى...

فالزمن الذى تسجله، كان يتراجع، بدلًا من أن يتقدَّم...

راقبها بضع لحظات، قبل أن يهزّ رأسه، ويغمغم فى عصبية:

- يبدو أن أحدهم ثبَّت محركها على نحو عكسى...

كانت عشر دقائق قد مرَّت، والكهل لم يعد بعد، مما ضاعف من عصبيته، فاندفع نحو الباب، وهو يهتف:

- الوقت يمضى، وأنا متعجِّل للغاية...

جذب الباب فى قوة، ولكنه لم ينفتح...

جذبه مرة ثانية..

وثالثة...

ورابعة...

وفى كل مرة كان يجذبه بقوة أكبر، وعصبية أكثر، ويصرخ:

- الباب يا رجل.

كان الوقت يمضى ولا من مجيب، والباب مغلق فى إحكام، ومصنوع من خشب سميك قوى، حتى إنه حاول دفعه بكتفه أكثر من مرة، دون أن يتحرك قيد أنملة...

وأخيرًا، توقف لاهثًا، وراح يدق الباب بقبضتيه فى قوة، صائحًا:

- الوقت يمضى يا رجل... أرجوك... سأخسر عملى.

وحتى مع هذا، لم يحصل على أية استجابة...

وبعد ربع الساعة من المحاولات، تملكه اليأس، فتراجع يلقى جسده على ذلك المقعد الخشبى، وهو يلهث فى شدة، ويغمغم فى انهيار:

- لماذا يفعل بى هذا؟! لماذا؟!

انتبه فجأة إلى أن الستار الأسود من خلفه يهتز، كما لو كان هناك تيار هوائى يحرّكه، فقفز من مكانه، وأسرع يزيح الستار؛ ليلقى نظرة على ما خلفه...

واتسعت عيناه عن آخرهما...

فخلف ذلك الستار الأسود، كان هناك كهف كبير واسع...

كهف يمتد إلى آخر ما يستطيع بصره بلوغه...

ومن ذلك الكهف، كان يأتى تيار من هواء دافئ لطيف...

ولكن ذلك الاستوديو كان فى بناية صغيرة، تطل على شارعين كبيرين...

فكيف يمكن أن يمتد هذا الكهف إلى مدى البصر؟!

كيف؟!

لم يجد تفسيرًا، سوى أن هذا الكهف ينحدر انحدارًا بطيئًا، بحيث يعبر ما تحت أرضية الشارع، دون أن يشعر المرء بهذا...

ولكن المهم هو تيار الهواء الدافئ...

إنه يعنى أن هذا الكهف ينتهى بمخرج ما..

مخرج إلى الحرية...

ثم إنه مضاء على نحو ما...



لم ير به أية مصابيح واضحة، إلا أنه كانت هناك أضواء حمراء، تسطع هنا وهناك؛ لتجعل الرؤية فيه ممكنة..

ولم يتردَّد (هانى) سوى لحظة واحدة، ثم اندفع يعبر خلف الستار الأسود، إلى ذلك الكهف العميق..

ألقى نظرة على ساعته، وهو يسير فيه فى سرعة...

نصف ساعة تبقَّت، قبل نهاية موعد تقديم الأوراق...

ربما لو أسرع الخطى...

ربما...

تحوَّل سيره إلى نوع من العدو، ثم لم يلبث أن صار يعدو بكل قوته، محاولًا بلوغ نهاية الكهف...

وكلما توغل فيه، كانت الحرارة داخله ترتفع، وتيار الهواء الدافئ تحوَّل إلى هواء ساخن، جعله يلهث أكثر، والعرق يتصبَّب على جبينه وجسده فى غزارة...

وعلى الرغم من هذا، فقد زاد من سرعته أكثر...

وأكثر...

وأكثر...

وأخيرًا، لاح له ذلك الضوء من بعيد...

ومع رؤيته، تضاعف الأمل فى أعماقه، فاندفع بكل قوته، والحرارة تتزايد على نحو رهيب، و...

وأخيرًا بدا له مصدر الضوء واضحًا...

لم يكن ضوءًا كما تصوَّر...

بل كان نارًا...

ألسنة من لهب رهيب، تتصاعد من فجوة كبيرة فى أرضية النفق..

وبكل انفعاله وتوتره، توقف يلهث فى شدة، وهو يحدق فى ألسنة اللهب فى يأس...

لهذا تزداد حرارة الكهف...

ولهذا صار الهواء ساخنًا...

ولكن المشكلة الفعلية كانت أن ألسنة اللهب تسد نهاية الكهف تمامًا...

وهذا يعنى أن محاولته كلها قد باءت بالفشل...

ويعنى، وهو الأكثر مرارة، أن فرصته فى الحصول على العمل، صارت منعدمة...

" هذا أقل مشكلاتك... "

لم يدر فى البداية من أين يأتى ذلك الصوت، ثم لم يلبث أن انتبه إلى ظل رجل، يقف على مقربة من النيران...

وبكل دهشته، تساءل: كيف لم ينتبه إليه فى البداية؟!

ولماذا بدا له الصوت مألوفًا؟!

وبكل انفعاله، هتف:

- من هناك؟!

رأى ذلك الرجل يتحرك متجهًا نحوه، وهو يقول، بلهجة حملت مزيجًا من القسوة والسخرية:

- لا تقل لى إنك لم تتعرفنى.



كانت ألسنة اللهب من خلفه تخفى وجهه تمامًا، مع ظل جسده، ولكن (هانى) تراجع، مغمغمًا فى عصبية:

- هذا الصوت... ولكن مستحيل أن تكون أنت.

اقترب الرجل أكثر، وبدأت ملامحه تتضح، وهو يقول ساخرًا، بكل القسوة:

- ولماذا مستحيل؟!

وما إن وقع بصر (هانى) عليه، حتى انطلقت من حلقه شهقة قوية، وتراجع كالمصعوق، وهو يهتف:

- (هانى)... مستحيل!

اقترب الرجل أكثر وأكثر، وبدت ملامحه شديدة القسوة، وهو يقول:

- لماذا؟!... ألأنك قتلتنى، واستوليت على كل أوراقى، واستخرجت بطاقة هوية باسمى؟!

صرخ (هانى) فى رعب، وهو يحاول التراجع، صارخًا:

- لا... مستحيل أن تكون حيًا...

قال الرجل، وهو يقف أمامه مباشرة، ويتطلع إليه بعينين ناريتين:

- ومن قال إننى حى؟

أطلق (هانى) شهقة أخرى، واستدار محاولًا أن يعود أدراجه، و...

وارتطم فجأة بباب أسود سميك...

ارتطامه المفاجئ أخل بتوازنه، فسقط على ظهره، وانحنى الرجل فوقه، وهو يقول بكل القسوة والشراسة:

- لا عودة إلى الوراء يا (صبحى)... رحلتك تنتهى هنا... لم تعد (هانى) بعد الآن... أنا (هانى) الحقيقى... سأستعيد هويتى.

ثم اعتدل، واشتعلت عيناه نارًا، وهو يضيف:

- وسآخذ روحك معى إلى حيث تستحق.

صرخ، وهو يخفى وجهه بذراعيه:

- ابتعد عنى... ابتعد عنى... أنت لست حقيقة... أنت مجرد وهم... وهم.

جذبه الرجل فى قوة وعنف، نحو الحفرة التى يتصاعد منها اللهب، وهو يقول:

- وماذا عن النار؟! أهى أيضًا وهم؟!

لفحت النار جسده، فراح يقاوم فى استماتة، صارخًا:

- لا... ليس النار... ليس النار.

لم تجد مقاومته نفعًا، والرجل يحمله على ذراعيه، قائلاً بكل قسوة الدنيا:

- اطمئن... سنذهب إليها معًا.

ووثب معه فى حفرة اللهب...

وانطلقت صرخة (هانى)... مشتعلة...

" أزمة قلبية... ...

قالها الطبيب الشرعى، وهو يفحص جثة (هانى)، الذى ظلَّ جالسًا على ذلك المقعد الخشبى، مستندًا بظهره إلى الستار الأسود، وعيناه جاحظتان فى رعب شديد، فقال الكهل، صاحب استوديو التصوير مرتبكًا:



- لقد تركته خمس دقائق فقط ؛ لإحضار ستار أبيض، بدلًا من هذا الأسود، وعندما عدت، وجدته على هذه الحالة، وكان هناك...

بتر عبارته دفعة واحدة، فسأله الطبيب فى حزم:

- كان هناك ماذا؟!

تردَّد الكهل لحظات، قبل أن يقول فى خفوت:

- كان هناك دخان، يتصاعد منه.

ردَّد الطبيب فى دهشة:

- دخان؟! ومن أين أتى؟!

مدَّ يده، يزيح ذلك الستار الأسود، وألقى نظرة على الجدار القديم خلفه، ثم أعاده إلى موضعه، وهو يقول فى حزم:

- انس موضوع الدخان هذا... إنها أزمة قلبية... ليس لدىَّ أدنى شك فى التشخيص.

وتم إغلاق قضية الستار الأسود...

تمامًا.

• • •